تحوت.. الإله المنتظر

كريم الشهاوي

تحوت.. الإله المنتظر. رواية

كريم فوزي الشهاوي

الطبعة الأولى: يوليو2015

تصميم الغلاف : م. محمد مجدي

تنسيق وتدقيق لغوي : إسلام علي

المدير العام : رباب الشهاوي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2015/13279

رقم الايداع الدولي: ISBN 978-977-85153-9-8

Alfouad_publishing@hotmail.com





تحوت..

الإله المنتظر

رواية

كريم فوزي الشهاوي



"ليس غيبًا ندعيه ولكن

مستقبل نتصوره"

الإهداء

كما يجود الشمس والقمر ضوءا

كما تجود المزن على الارض مطرا

جادا هما علي تربية وصبرا

مهما قلت فلن أوفيهما شكرا

لأمي وأبي . . شكرا

فرق شاسع بين الخرافة والأسطورة؛ فالأسطورة قصـة حقيقيـة وقعـت، يُعظِّمها الناس ويضيفون إليها بعض القـوى الخارقـة حتـى تـزداد فيهـا الإثارة. أما الخرافة فهي قصة لا أصل لهـا مـن الواقـع، يصـنعها الـرواة والحكماء في زمن من الأزمان؛ ليبثوا في نفـوس شـعوبهم الأمـل أحيانًـا، والخوف في أحايين أخرى لتطويع نفوسهم.

أحيانًا يصبح الواقع غريبًا جدًا، أغرب من الخيال حتى لا يستطيع المرء التفرقة بين القصـة الحقيقيـة والخرافيـة. لكنـي أعـدكم أن أروى لكـم هذه القصة بكل أمانـة مـا اسـتطعت. قـد يظـن أحـدكم أنهـا ملحمـة أسطورية أو قصة خرافية، ولكنهـا سـتكون الحقيقـة..... الحقيقـة مـن حيث أراها.

(١)

تبدأ قصتي حيث تنتهي كل القصص. تبدأ مع النهاية، نهاية العالم المتحضـر أو ما كنا نزعُم أنه كذلك. إنها الحرب العالمية الثالثة. لقد بدأت هذه الحرب مع بداية ما أطلقت عليه القوى العظمى في ذلك الوقت (الحرب على الإرهاب)، وتحولت بعد ذلك إلى حرب على الإسلام. تكوَّن في العالم قسمان: الأول هو الطرف الغازي: (الولايات المتحدة الأمريكية) مع (فرنسا) و(إنجلترا) وكل من تبعهم، الذين رأوا أن الإسلام خطر داهم يهدد حياة شعوبهم، بعد أن كاد عدد المسلمين هناك يفوق كل الديانات الأخرى. كانت (روسيا) تستشعر الخطر من كل الدول الإسلامية التي تحيط بها، والتي تقوى يومًا بعد يوم، أو "حبل المشنقة الذي يلتف ببطء حول عنق أمتنا"، كما عبر عن الأمر الرئيس الروسي في ذاك الوقت. كانت الأزمة على أشدها بين الكوريتين؛ لذلك كانت طبول الحرب تُقرع، و(الصين) و(اليابان) كانتا مشغولتين بهذه الأزمة. هذا كان الطرف الأول. أما الطرف الثاني فهو ما بقي من دول العالم، الذي عانى ويلات هذه الحرب.

انقـدحت شرارة هـذه الحـروب واسـتمرت في اسـتعارها لمـدة خمـس سنوات عجـاف . لم يكـن هنـاك رابـح، كـان الكـل خـاسراَ؛ فالصـواريخ الموجهة يمكن أن تصيب كـل مكـان، والعمليـات الفدائيـة تسـتطيع أن تخترق قلب الـبلاد. (الولايـات المتحـدة) تفككـت؛ (روسـيا) غرقـت في الجليد؛ (كوريا الشمالية) أطلقت ثلاثـة صـواريخ نوويـة عـلى (الصـين) و(كوريا الجنوبية)؛ (أوروبـا) العجـوز تقاتـل بعضـها بعضًـا؛ انقطعـت

الاتصالات حول العالم، وأصبحت الأقمار الصناعية تحوم في الفضاء بلا متحكم.

نشأت في (مصر) -حيث أعيش- حكومة عسكرية قوية على خلاف كل دول العالم، والسبب في ذلك بسيط؛ لقد أطلقوا عليها حكومة الماء لأنها سيطرت على (مصر) و(السودان)، وبنت فيهما سبعة سدود، بعد أن دمرت سد الألفية في (إثيوبيا). لذلك فقد كانت تتحكم في الماء في كل إفريقيا، وتبيع منه لدول شرق آسيا أو أوروبا مقابل النفط أو بعض السيارات التي لا تزال قابلة للعمل، أو طبعًا بعض المعدات العسكرية.

مياه النيل لم تعد تصل إلى البحر المتوسط. لم يعد هناك دلتا للنيل، بل أصبحت صحراء قاحلة، وأصبح الناس يعيشون على الآبار التي يحفرونها في المجرى أو حوله.

هذا هو الزمان وذاك هو المكان. أما عن بطل هذه القصة وهو أنا، (يوسف أحمد الحلبي)، قبل الحرب كنت قد أنهيت دراستي للهندسة الميكانيكية، ولكن هذا لا يهم الآن؛ فلم تعد أي آلات تعمل في المصانع، والسيارات قليلة جدًا على الأرض.

حكومة الماء لديها عملاء منتشرون في أرجاء المدن، يدَّعون أنهم يحفظون الأمن والاستقرار، لكن في الواقع هم مصدر الرعب الحقيقي، نطلق عليهم اسم (الغربان)؛ لأنهم دائمًا يتشحون بالسواد ويتنقلون في سيارات سوداء.

فتحتُ ورشة صغيرة لصيانة السيارات، لذلك كنت أتعامل كثيراً مع الغربان؛ لأنه لا يقوى على امتلاك سيارة والاحتفاظ بها دون أن تُسرق

أو تُنتزع منه إلا الغراب. وهكذا أصبحتُ صديقًا لبعضهم، وكنت أقول في نفسي "قليل من النفوذ لا يضـر". ومن خلالهم استطعتُ الحصول على وظيفة الأحلام؛ لقد منحوني عملًا في (الجيزة). كانت وظيفة الأحلام لأي شخص؛ لأنها المكان الوحيد على هذا الكوكب الذي يكون صاخبًا في الليل. الأضواء الكهربائية في كل مكان، وخزانات الماء متواجدة بكثرة. لم يكن أحد يعلم ما الذي يحدث في تلك المدينة، ولكن الجميع كانوا يدركون أمرين: الأول أن عشـرات الطائرات تهبط شهريًا في هذه المدينة. وإذا أدركنا أن عدد الطائرات التي لا تزال عاملة في العالم، والتي لا يملكها إلا أصحاب النفوذ، لا يصل إلى المائة، ستعلم أن خطبًا جللًا يحدث في هذا المكان. الأمر الثاني هو (الساعة)، أو كما يُطلق عليها (ساعة الأمنيات). لا أحد يعرف لماذا سُمِّيت بهذا الاسم وماذا تفعل، وإن كانت حقًا ساعة أو أنه تعبير مجازي. انطلقت الشائعات كثيرة عنها؛ البعض قال إنها ساعة تحقق أمنيتك مهما كانت، والبعض الآخر قال إنها مجرد آلة تستقر بداخلها فتوحي لمخك بما يريد أن يراه أو ما يتمناه. لم أصدق أيًا من هذه الشائعات، ولكني كنت متأكدًا أنها شيء عظيم وذو نفع؛ لأني أعرف الرجل الذي أشرف على صنعها. إنه السيد (عثمان الغنام)، الرجل المحبوب في أوساط الفقراء؛ ليس فقط من أجل تبرعاته السخية للمساكين، بل أيضًا هو كما يطلق عليه البعض (الفارس العجوز)؛ لأنه هو الذي وقف وحده ضد الفئة الأكثر فسادًا وظلمةً على وجه الأرض. إنهم النورانيون. رغم أن اسمهم يوحي بالضياء والبهجة، إلا أنهم العكس تمامًا؛ فهم الفئة الوحيدة التي ربحت من الحرب. باختصار هم جماعة دينية موجودة من قديم

الأزل. يدَّعي البعض أنهم موجودون بيننا في الخفاء منذ عهد الفراعنة ولكنهم لم يكشفوا عن أنفسهم إلا في نهاية الحرب. يقودهم زمرة من الأثرياء ذوي النفوذ، وقد ربحوا أموالًا طائلة من بيع السلاح والدواء في الحروب. استغلوا آلام الحرب وويلاتها، واستغلوا ضعف الإيمان عند الناس. فقد المسيحي الثقة في صليبه، والمسلم في كعبته، وجاؤوا فاتحين أيديهم بالطعام والكساء، يدَّعون أن الشيطان هو ابن الله الذي أراد الخير للبشر وأن يزيل عنهم الألم في الدنيا، لكن الله، أو (أدوناي) كما يسمونه هم، رفض، فتمرد الابن على أبيه، فنبذه والده وأبعده في سجن في جوف الجحيم يحرسه ملائكة غلاظ شداد، وأن الشيطان الذي كان معاقبًا سيعود قريبًا ليحكم الأرض ويقود ثورة على السماء.

بعد انتهاء الحرب يدرك الإنسان مدى الفظاعة التي خلَّفتها، ويدخل في مرحلة الصدمة، لذلك فقد تبعهم الملايين من البشر خاصة وأن خصائص التربة تغيرت نتيجة الانفجارات النووية فأجدبت؛ وتبدل الطقس، فأقلعت السماء؛ وانتشرت المجاعات واستشرت الأوبئة المستعصية، ففتح النورانيون مخازن غلالهم وأغدقوا على المرضى بالأدوية والرعاية.

فكان هذا الرجل (عثمان الغنام) هو الذي تصدى لهم، وحاربهم، وساعد الملايين من المسلمين في الحفاظ على دينهم. لذلك أنا مسرور لأني سأعمل عند هذا الرجل في المدينة التي يملكها (الجيزة).

غدًا موعد انطلاقي إلى الجيزة وأترك هذا المكان المقفر إلى الأبد، لذلك وجب الاحتفال. ذهبت إلى منزل صديقي (أحمد). هو ينتمي إلى طائفة تطلق على نفسها اسم (الفئة المؤمنة)، وهي عبارة عن تجمع

من حفظة القرآن القليلين المتبقين على الأرض، والذين هدفهم نشر القرآن في المدن والقرى حتى لا يضيع مع موتهم. عندما وصلت إليه أدركت أني لست وحدي الذي سيرتحل، بل هو أيضًا! في البداية ظننته سيتجه إلى (القدس) ليحارب مع المجاهدين الذين يقاتلون هناك؛ فرغم تحرير (القدس) من أيدي الإسرائيليين إلا أن الخطر لا يزال داهمًا؛ فقد تجمع الآلاف من مختلف القبائل اليهودية في شمال (فلسطين) وجنوب (لبنان)، يشحذون الهمم ويجمعون السلاح لقتال المسلمين مجددًا بدعم من النورانيين الذين يشجعون هذه الحرب العقائدية ليقوموا بهجوم قوي على القدس؛ إلا أني تفاجأت أنه ليس متوجهًا إلى هناك بل نحو (مكة) فسألته:

ـ "لماذا تذهب إلى (مكة)!؟ إنه ليس موسم الحج!!"

فأخبرني:

ـ "هناك رجل قوي يجتمع حوله الآلاف، يريد توحيد المسلمين تحت راية واحدة لبناء دولة قوية لمواجهة الأخطار التي تواجههم"

سألته:

ـ "هل أنت ذاهب لتتبعه؟؟"

أجابني:

ـ "لا.. لقد كلفتني جماعتي بمقابلته وتقييمه؛ لنرى إن كان طامعًا في السلطة أم أنه حقًا يريد توحيدنا"

انتهت الليلة دون احتفال، فنمت مبكرًا استعدادًا لليوم الموعود.

*****

مع أول خيط للصبح انطلقت بين المباني المهدمة والجسور المتكسـرة، حتى وصلت إلى البوابة الكبيرة. إنه الباب الوحيد للدخول إلى (الجيزة)؛ فالمدينة أصبحت مثل ثكنة عسكرية محاطة بالأسوار من كل جانب وعليها حراسة مشددة. أعطيتُ الحراس الأوراق التي تثبت عملي هناك، فعبرت الأبواب الضخمة لأدخل إلى المحطة. إنه خط القطار الوحيد العامل في (مصـر)، يشق الجيزة من شرقها إلى غربها. انطلق القطار الذي يتكون من ثلاث عربات فقط بي ومجموعة من العمال، منهم الجديد مثلي، ومنهم من يعمل منذ سنوات. يا الله!! يا له من إحساس رائع وأنا أركب القطار والريح تتنفس في وجهي بهواء بارد عذب. لم أشعر بمثل هذا الشعور الرائع منذ سنوات. مررت خلال مسيري على أربعة قطاعات داخل المدينة، كل قطاع كان عبارة عن مصنع كبير تحيط به بعض المنازل الخاصة بالعاملين في هذا المصنع، منها ما هو كبير وفخم، ومنها ما هو متواضع. القطاع الأول كان أشبه بمصنع ضخم للحديد والصلب وتشكيل المعادن، بينما القطاع الثاني كان لصناعة الأثاث والمصابيح، القطاع الثالث كان للصناعات الإلكترونية، ثم القطاع الأخير كان حيث الأهرامات و(أبو الهول) وبالطبع (الساعة). بالطبع توجد قطاعات أخرى في هذه المدينة لا يذهب إليها القطار، يُصنع فيها السلاح ومعدات النقل وأشياء أخرى. كاميرات المراقبة مبثوثة على طول الطريق لتكشف كل ركن من أركان المدينة، توحي بسر خطير يقبع بها.

المدينة صارت كمعبد مقدس لأحد الفراعنة، تنظر فترى كل شيء واضحًا: المباني، الجنود، الصحراء. ولكن عندما تحدِّق بتمعن، ترى من خلف هذه المظاهر كنزًا دفينًا، أو حقائق مفزعة.

لقد كان حلمًا يتحقق أن أصل إلى هذا المكان المهيب.

لدى وصولي إلى محطتي، أشهرت تصريحي لأحد الحراس، فسمح لي بالدخول إلى المنطقة (صفر)، حيث توجد (ساعة الأمنيات) التي كثرت حولها الشائعات. كلما تذكرت هذه اللحظة يرسخ في ذهني أني قد اصطُفيت لأكون من القلة الذين يدركون حقيقة الساعة.

في هذا المكان لا وجود للغربان بثيابهم السوداء الجافة المتصلبة، فقط حراس مبتسمون يرتدون ثيابًا بيضاء أنيقة مخطوطة بخطين أحمرين من الجانبين، ويحملون أسلحة غريبة لا أفهم ماهيتها، تبدو وكأنها أسلحة ليزرية.

سرت على الطريق المُعَبّد من أحجار الجرانيت الصلدة، تحيط بي الرمال. كان طريقًا ضيقًا جميلًا، شعرت وأنا أسير عليه وكأنه ممر ضيق على بحر لجي من الرمال المتلاطمة. تبعتُ أحد الحراس الذي كان يتحرك بأريحية، فمشيته ليست عسكرية وليست متعنتة مثل الغربان. صعد بنا هذا الممر الجرانيتي إلى أعلى التلة التي تحتجب خلفها الساعة كلؤلؤة تختبئ في صدفتها.

عندما وصلتُ أعلى التلة شاهدت أغرب وأعجب منظر رأيته في حياتي. وقفت طويلًا أمامه وعجز لساني عن وصفه، وكلما عدت بذاكرتي إليه شعرتُ بالقشعريرة تسري باردة في ظهري. لا أعرف إن كان منظرًا جميلًا أم قبيحًا؛ سبب عجزي أن هذه اللوحة التي كانت تنتصب

أمامي بها جانب رائع بلا شك؛ فقد كان المبنى الذي فيه الساعة يشبه القبة الكبيرة التي تطفو على الرمال. هذه القبة مزدانة بالنقوش الرائعة الخلابة، جعلت من مكتبة الإسكندرية شيئًا تافهًا إذا قورنت بها. ولم أكد أصدق عيني عندما رأيتُ جدرانها مغطاة بلوحات منقوشة بماء الذهب وقطع الفضة. لقد كان منظرًا خلابًا بلا شك.

أما الجانب الآخر الفظيع من الصورة، فكانت الأهرامات، التي تغيرت معالمها تمامًا؛ فقد تناثر الهرم الأصغر وصار كومة كبيرة من الصخور ملقاة فوق بعضها، الهرم الأوسط الثقوب تملأ حوائطه وزالت قمته تمامًا، أما الأكبر فاستطاع أن يحافظ على عظمته وشموخه بلا خدوش أو جروح رغم وقفته غير المستقيمة كعجوز ينتظر الموت. أما أبو الهول الذي بناه الفراعنة على هيئة رأس إنسان وجسد أسد ليخيف اللصوص، فقد أصبح حيوانًا بلا رأس.. أسدًا بلا هيبة.

ربت الحارس على كتفي وقال:

ـ "منظر رائع أليس كذلك؟"

ترددت قليلًا، ثم قلت له:

ـ "حقًا لا أدري ما الوصف الصحيح الذي يمكنني أن أصف به هذا المكان!"

قال:

ـ "صدقني أنا أيضًا.. كلما وقفتُ هنا تحيرت في سبب إعجابي بهذا المكان.. هل التعجب من عظمة الإنسان الذي شيّد هذا البناء العبقري!؟ أم حقارته ليدمر مثل هذا التشييد المتقن!؟"

أعجبني قوله؛ فقد كان ينم عن ثقافة وفهم، فقلت له:

ـ "هذا هو السر وراء تفرد البشر.. إنه التناقض الواضح الذي تزخـر بـه شخصياتهم وحيواتهم"
ابتسم وقال:
ـ "أنت محق، ولكننا يجب أن نتحرك الآن"
نزلنا من فوق التلة على الطريق الجرانيتي، حتى وصلتُ إلى القبة الرائعة. كانت كل خطوة تزيدني استثارة وحماس، وازدحم رأسي بالأفكار. هل الساعة في هذا المبنى؟؟ هل المبنى هو الساعة؟؟ لا أدري.
عند آخر انحناءة مؤدية إلى القبة، التفت إليّ الحارس، وأشار بيده "من هنا..."
وجدته يشير إلى طريق آخر متفرع من الطريق الجرانيتي، مصنوع من الحجر الجيري، ويبتعد عن القبة.
شعرت بالإحباط عندما علمت أني لن أدخل إليها، ولكـن لا بـأس فقـد اقتربت كثيراً.
وجدتني أمام حظيرة ضخمة للطائرات، فعلمتُ أني سأعمل ميكانيكيًـا مجددًا، ولكن هذه المرة للطائرات والسيارات الفخمة، مع راتب أفضل بالطبع ومكان أجمل للعيش.
بعد أن تعرفت على المكان وأصبح مألوفًا لي، في نهاية اليوم أُمرت أن أتوجه إلى القسم الطبي. أخذوا عينة من دمي -لا أعرف السبب- وأجروا لي فحوصًا شاملة على كل أجزاء جسدي. بدأ الطبيب يسـرد أوصافًا لي والممرضة بجانبه تكتب "شاب في أوائل الثلاثينيات، العينان بنيتان، الطول ١٨٣سم، الوزن ٧٩كجم، قوي البنية، يوجد في جسده

آثار لثلاثة جروح كبيرة: الأول في رسغه طوله ٥سم، الثاني في صدره طوله ٩سم، والثالث في بطنه، طعنه نافذة." ملخص بسيط وواضح عن البيئة العسيرة التي نشأت فيها.. لا مكان للضعفاء.

تعجبتُ من هذا الفحص الدقيق، ولكني جئتُ مستعدًا لكل أنواع الغرائب. أجمل ما كان في ذاك المكان كانت غرفتي الواسعة. بها سرير لي وحدي، مرفق بها حمام، يحوي الماء البارد والساخن. قضيتُ ليلة دافئة هادئة، أنظر من النافذة فأرى الجنود المدججين بالسلاح، فأدعي أنهم هنا لحمايتي. لا قلق بعد اليوم من اللصوص، لا قلق بعد اليوم من الغربان، لا قلق بعد اليوم من قلة الطعام. إنه الاستقرار والطمأنينة، معنيان نسيت أنهما موجودان من زمان طويل.

** ** ** **

(٢)

ما أسوأ أن تمر الحياة دون توقعاتنا وطموحاتنا!

فالعمل العظيم الذي كان ينتظرني عبارة عن صيانة وتشحيم أجزاء مواتير الطائرات التي تهبط إلينا.

ورغم اقترابي من الساعة، إلا أن ثلاثة أشهر قد مرت دون أن أعلم حقيقة هذه الساعة، بل إن الشائعات في تزايد نتيجة حالة الحرص الشديد والتأمين المبالغ فيه ممن يديرون المكان، وكلما صادقت واحدًا ممن يملكون تصريح الدخول إلى المبنى الذي تتواجد فيه الساعة، وجدته أحد نوعين: إما أنه أجهل مني بها، لم يرها من قبل ولم يسمع سوى الشائعات، وإما أنه شخص قد وصل إليها واطلع عليها، وفي هذه الحالة، كلما اقتربت من ذكر الساعة يصبح صنمًا أجوف لا يرى لا يسمع ولا يتكلم.

صادقت العديد من الأشخاص، ولكن (هاني)، الحارس الذي قادني إلى مكان عملي في اليوم الأول، كان أعز أصدقائي.

في إحدى الليالي، توجهت إليه في مكان حراسته على التل المرتفع المطل على القبة....

تنهدتُ طويلًا، ثم قلت إن أسوأ شعور قد يعانيه الرجل، الشعور بالعجز.

التفت إليّ وقال:

ـ "لم تقول هذا الكلام!؟"

قلت له:

ـ "أنت تعلم السبب.. أنا أحاول الوصول إلى الساعة أو حتى معرفة ماهيتها منذ وصلت، وفي كل محاولة أفشل وأنت لا تساعدني.. أليس هذا قمة الشعور بالعجز؟"

قال لي:

ـ "انت لا تعلم كيف تسير الأمور هنا. إن السيد (عثمان) يتعامل برفق مع كل الموجودين، ولكن من يتخطى حدوده يعاني بشدة. إنه رجل لا يحب المزاح ويشعر دائمًا أنه في حرب، ويعتبر كل من يحاول معرفة أمر لا ينبغي له فعل خيانة.. وأنت تعلم ما مصير الخائن.."

ومرر إصبعه على عنقه بعلامة الذبح.

تركته وأنا أشعر بالإحباط وقلت له:

ـ "أعلم أنك لا ترغب في مساعدتي.. وأنا كنت أظننا أصدقاء!!"

تنهد بعنف وغمغم:

ـ "أعلم أني سأندم على هذا"

ثم ناداني، فعدت إليه، فقال:

ـ "إن كنت تصر يمكنني أن أساعدك، ولكن احذر أن تذكر اسمي حتى لو عُذبت"

أومأت برأسي بالإيجاب، واقتربت منه، فقال:

ـ "هناك رجل يدعى (سالم شرف).. إنه أحد القلائل الذين يملكون تصريح دخول إلى المبنى، وهو مسؤول عن المطبخ، ويصدف أن يشاركك في نفس هوسك بالساعة. يمكنني أن أوصلك به وهو يمكنه أن يدخلك"

انفرجت أسارير وجهي، وشعرت بالأمل، وقلت له:

- "اتفقنا"

قال:

- "إذن عليك أن تأتي هنا غدًا في نفس الموعد، واحذر أن يراك أحد"

عدت إلى مسكني سعيدًا، أشعر بأني أخيراً سأسبر أغوار هذه القبة الرائعة وأكشف أسرارها.

** ** ** **

(٣)

بينما كانت تنقضي أيامي هادئة في الجيزة، كان صديقي (أحمد) حافظ القرآن يخوض مغامرة من نوع مختلف؛ فقد كان يتوقع أن تكون رحلته سلسة لا مشاكل فيها.

صلَّى الفجر وانطلق نحو (سيناء)؛ ليعبر منها إلى (فلسطين) ثم (مكة). معادلة بسيطة ورحلة إيمانية قبل أن تكون استكشافية. ولكنه لدى وصوله إلى (سيناء) ممتطيًا جواده هو وسبعة من رفاقه، رأى طوال الطريق المؤدي إلى (غزة) جثثًا ممزقة وجيادًا مقتولة، وتعددت الأسلحة التي هاجمتهم؛ فمنهم من قُتِل بطعن السيف أو رمي السهم، ومنهم من قُتِل بطلقات نارية متعددة الأحجام والأنواع.

عندما رأوا هذا المنظر البشع، علموا أن الطريق لم يعد آمنًا، وأنه قد امتلأ بقطاع الطرق. ولكن كيف يحدث هذا والشيخ (زياد) أمير (سيناء) كان قد أمّن هذا الطريق وفرض سيطرته وسطوته على (سيناء) كلها من الشمال إلى الجنوب!؟

لذا كان الخيار الحكيم هو أن يسلكوا طريقًا آخر حتى يكونوا في مأمن، فكان خيارهم أن يتجهوا نحو الشمال، إلى (العريش) بحثًا عن أحد الأدلاء الموثوقين ليقودهم بين الجبال.

بعد يوم طويل من السفر، وجدوا أنفسهم أمام خيمة صغيرة لعجوز وزوجته يرعيان الغنم، فاستأذناهما في الطعام والشراب على أن يعطياهما بعض المال.

بعد أن تناولوا الطعام، جلس (أحمد) بجانب العجوز الضرير، وسأله:

ـ "أجاءك خبر عما حدث على الطريق بين (سيناء) و(غزة)؟"

قال له الرجل:

ـ "نعم وصلني.. يبدو أنكم جئتم هربًا من هناك"

قال له (أحمد):

ـ "نعم.. أتعرف ما حدث؟ هل أصاب الشيخ (زياد) مكروه!؟"

تنهد الشيخ وقال:

ـ "لا يا بني إنه بخير، ولكنه قد أصابه جنون الارتياب كما أصيب غيره كثير من الملوك.. لقد علموا بهذا الرجل الذي في (مكة) يدعو الناس إلى الوحدة وبناء خلافة قوية"

ـ "وماذا في ذلك!؟ إنه أمر جيد"

ـ "جيد لي ولك، ولكنه ليس كذلك لمَلك مهدَّد بزوال مُلكه"

ـ "أيخشاه (زياد) إلى هذا الحد!!؟"

ـ "ليس (زياد) وحده يا بني.. بل ملوك (عكا) و(يافا)، وبعض ملوك (الشام) وزعماء (العراق).. خاصةً بعد ما حدث في (اليمن) و(عمان)"

تعجب (أحمد):

ـ "وماذا حدث في (اليمن) و(عمان)!؟؟"

ـ "قال لي أحد المسافرين، إن الرجل من (مكة) قد سحرهم بحسن منطقه وجمال خلقه، فخلعوا ملوكهم واتبعوه، وقد أصبح له شأن عظيم، كما أن العديد من القبائل والبدو قد دانوا له، وقد تطرف بعضهم وادعى أنه المهدي المنتظر، خاصةً وأن اسمه (محمد بن عبد الله)"

ـ "وهل ادعى صاحب (مكة) هذا الأمر؟"

ـ "لا يا بني.. إن كان من أخبرني صادقًا، فإنه لم يفعل، بل قال "أنا رجل كأي رجل آخر، لا مأرب لي سوى توحيد بني الإسلام تحت راية واحدة، ولا مطمع لي في ملك أو مال"

ـ "وما رأيك أنت يا شيخنا؟ فإني أجدك رجلًا حكيمًا ذا رأي"

ـ "إن كان من أخبرني بكل هذا صادقًا في قوله لم يزد أو ينقص، فإني أراه رجلًا صادق العزيمة، نبيل المطلب، لا يشوبه حرص أو مطمع حتى الآن، وسيكون له شأن عظيم، وسيعلو فوق من حوله من الملوك، وأن الملوك حوله لهم الحق في القلق على ملكهم"

ـ "إذن هم من قطعوا الطريق إلى (مكة)"

ـ "يا بني.. لا طريق معروف اليوم إلى (مكة) إلا وفيه قتلة وسُرّاق بأمر من يحكم البلاد؛ ليمنعوا الناس من الوصول إليه والاستماع إلى كلامه. حتى المعتمرين والحجيج لا يستطيعون العبور"

ـ "ولكني يا شيخنا أبغي الوصول إلى (مكة) مهما كلف الثمن"

تنهد الشيخ:

ـ "أأنت ذاهب لاتباعه يا بني؟"

ـ "بل لمقابلته، ودراسة فكره ورأيه، ومن ثم أخبر من هم ورائي بما رأيت وسمعت"

تنهد الشيخ مجددًا:

ـ "سأرشدك يا بني إلى دليل ثقة، أمين، يعرف الطريق حق المعرفة، ليقودكم إلى هناك؛ عسى الله أن يوفقكم ويجعل الفتح على أيديكم"

شكر (أحمد) الشيخ، ومع أول خيط للنهار انطلقوا جميعًا يقودهم الدليل الشيخ (عبد العليم) في رحلة لا يدرون كيف وأين ستنتهي، وما المخاطر التي ستواجههم فيها؟

** ** ** **

(٤)

لم يكن أي من سكان (الجيزة) يعلم بما يحـدث خارجهـا؛ فكـما حـرص (عثمان) على إبقاء أمر الساعة سرًا، فقد حرص عـلى أن يحجـب أخبـار الخارج عن سكان المدينة؛ حتى لا يدب الذعر في نفوسهم.

لذلك كانت الأيام تمر رقراقة هانئة على أغلب سكان المدينة إلا قليل، وقد كنتُ من هذا القليل، والسبب هو أمر الساعة الذي يقض مضجعي ليلًا ويعكر عليّ صفو نهاري. إنه الفضول يغزو عقلي كما تلتهم النار الكلأ.

لم أنم في تلك الليلة. أخذتُ أتقلب في سريري أفكر فيما سأقوله للرجل الذي سأقابله، وكيف سأقنعه بأن يُدخلني إلى مبنى الساعة. قضيت النهار في العمل شاردًا، ومع دبيب الليل توجهت إلى حيث يكون اللقاء. وجدت (هاني) جالسًا، وبجواره رجل نحيف قصير، يرتدي نظارة طبية مستديرة سميكة وكأنها سقطت من قعر كوب زجاجي.

صـافحته وهـو لا يـزال يحـدّق فيّ بعينيـه الغـائرتين المختبئتـين خلـف النظارات.

قال:

ـ "أنا (سالم).. لقد أخبرني (هاني) أنك مثلي.. مولع بأمر الساعة"

قلت له:

ـ "نعم"

قال:

ـ "إذن لن يُجدي الحديث هنا. لنذهب إلى مسكني فأنا أريد أن أريك شيئًا"

طوال الطريق كان الرجل الخمسيني يتحدث بسرعة مائة كلمة في الدقيقة بشغف كبير عن الساعة، حتى أني لم أكن أستطيع أن أجاريه، فأدَّعي أني سمعت كل ما قاله، وأهز رأسي موافقًا. حتى استرعى انتباهي أمر هام قاله...

قال:

"أتعرف لم الشائعات كثيرة عن الساعة؟ السبب يا صديقي هو أن حتى من اخترع الساعة ومن اطّلع على أسرارها لا يعلم كنهها. لقد تحدثت إلى كثيرين، وبحثت ونقبت وجمعت المعلومات من كل مكان، حتى تمكنت أخيراً من رسم تصور عن الساعة. إنها آلة تتطور كل يوم، وتتنوع مهاراتها وإنتاجها، لذلك اصطلح القائمون عليها على تسميتها (ساعة الأمنيات)؛ لأنها تحقق أمنية كل عالم، كل باحث، كل فيلسوف. إنها جهاز يثبّت على رأسك، يجعلك تعيش أجمل حلم فيه. إنها آلة موسيقية تنتج أجمل الألحان.. إنها تعالج المرضى، وتجيب على أكثر تساؤلات العلم صعوبةً والفلسفة غموضًا".

شعرت أني أستمع إلى هارب من مصحة للأمراض العقلية لا إلى رجل راشد في الخمسين من عمره يستهويه دراسة أمر الساعة، لذلك فكرت في التراجع عن الأمر برمته وأنا لا أزال سالماً، ولكني وجدته يقول:

ـ "ها نحن قد وصلنا!"

وجدت مسكنه صغيراً متواضعاً كمسكني، ولكنه كان كمكتبة غير مرتبة مليئة بعشرات الكتب، على الأرفف وعلى الأرض وتحت السرير. كنتُ حذرًا جدًا في خطواتي حتى لا أضع قدمي على أحد تلك الكتب. أراني العشرات من قصاصات الأوراق من بعض الكتب والصحف التي

تثبت نظريته. أثارت هذه القصاصات إعجابي، لكني لم أكن مقتنعًا أن مثل هذا الرجل المهووس صادق.

في نهاية السهرة التي أجبرت فيها على الصمت والإصغاء؛ لأن مضيفي لم يكن يسمح لي بمساحة ولو ضيقة من الكلام، عرض عليّ العرض الذي أتيت من أجله. خفت صوته فجأة وتلفت حوله ثم قال:

ـ "هل تريد الدخول إلى داخل المبنى حيث الساعة؟؟"

أومأت برأسي بالإيجاب.

فقال:

ـ "أنا سأدخلك. كنت أتمنى الدخول بنفسي بالطبع، ولكن كل من بداخل هذا المبنى يعرفونني، ويعلمون أنه ليس مسموحًا لي بمجاوزة المطبخ"

اقترب مني وبدأ يهمس:

ـ "ستأتي سيارة محمّلة بحمولة من الخضار غدًا عند منتصف الليل تقريبًا. بمجرد أن تصل، أنت ستأتي وتحمل أحد الصناديق وتدخل مع العمال، ولا تنبس ببنت شفة. ستجدني بالداخل.. سأرشدك إلى حيث تذهب"

ثم مد يده إليّ مصافحًا وقال:

ـ "إلى الغد إذن"

صافحته ورحلت.

في اليوم التالي وعند منتصف الليل، اقتربت سيارة محملة بالخضار من باب المطبخ، وبمجرد أن بدأ إفراغ الحمولة، كنت أحد الواقفين لحمل

الصناديق. حملت أحدها ودخلت. وجدت (سالم) يحمل دفترًا يراجع ما يدخل إلى المطبخ ويطَّلع عليه"

بمجرد أن رآني قال:

- "أنت هناك! لا تضع هذا الصندوق هنا.. اتبعني"

اقترب من إحدى سلال القمامة، واستخرج منها كيسًا أسود يحوي ملابس تشبه ملابس الحراس وقال:

- "أسرِع وارتدِ هذا"

عندما وصلنا إلى الباب المعدني الموجود في نهاية الرواق، نظر من نافذته الزجاجية المستديرة وقال:

- "ستبدأ نوبة الحراسة بالتغير الآن. هذه فرصتك.. انطلق! الله معك! واحذر كاميرات المراقبة"

بمجرد أن أغلق خلفي الباب المعدني، شعرت أني أحمق لأقدم على هذا الفعل الخطر، ولكن فات الأوان على مثل هذا الشعور"

انتهت نوبة الحراس الواقفين أمام الباب المؤدي إلى المبنى الرئيسي، وبدؤوا ينسحبون متثاقلين من أمام الباب، ثم وقفوا يتحدثون مع الحراس أصحاب النوبة الجديدة.

قلت لنفسي "هذه فرصتي!" فانطلقت مسرعًا، وأخرجت البطاقة الممغنطة التي أعطانيها (سالم)، ومررتها في الجهاز المثبت بجوار الباب، لكنه أصدر صوتًا رافضًا وأضاء لونًا أحمر، فمررتها مجددًا ولم يستجب، يا للهول! لو نظر أحدهم خلفه لرآني. تصبب العرق من جبيني ويدي حتى كادت تنزلق البطاقة من يدي. سأحاول مرة أخيرة وأرحل، ولكن

هذه المرة أصدر الجهاز ضوءاَ أخضـر وتوارب الباب قليلًا فدفعته ودلفت إلى الداخل مسرعًا.

تفاجأت من المنظر الذي رأيته في الداخل! وجدت نفسي في قاعة كبـيرة مليئة بعشرات الحراس والموظفين، الذين يذرعون القاعة ذهابًا ومجيئًا في نشاط مذهل، وكأنهم في خلية ضخمة وهم النحل العامل.

سرت بينهم دون أن يشعر أحد بوجودي؛ فليس هناك وقت لأحد ليسأل "من أنت؟". تجولت في هذه القاعة المستديرة، أراقب السيدات الجالسات على المكاتب وبين أيديهن أكوام من الورق، حتى وجدت نفسـي أمام باب خشبي مرسوم عليه سهم ومكتوب (إلى المسـرح). دفعتُ الباب وولجت إلى الداخل، وسرت في هذا الممر الضيق البارد، المحاط بنقوش خلابة متعدة اللغات والثقافات على الجدران. شعرتُ وأنا أسير في هذا المكان ذي الانارة الخافتة- أجد طعم الرطوبة المعدنية في حلقي- وكأني أسير في رواق لمعبد قديم.

في نهاية الرواق وجدت بابًا آخر مكتوب عليه (المسرح).

نظـرتُ مـن النافـذة المسـتديرة في البـاب، ولكنـي لم أر شـيئًا؛ فـالظلام حالك. دخلتُ فباغتني الهواء البارد المندفع من أجهزة التكييف المثبتـة في الجدران، فأثلجت صدري وجددت حيويتي. لقد كان مسـرحًا صغيراَ فارغًا يتسع لمئتي شخص على الأكثر.

فجأة تسلطت بقعة صغيرة من الضـوء عـلى خشـبة المسـرح، وبـدأت تتسع شيئًا فشيئًا، ليظهر رجل طويـل القامـة ممسـك بجهـاز للاتصـال اللاسـلكي يتحـدث فيـه. "إلى اليسـار قلـيلًا.. والآن وسِّـع بقعـة الضـوء قليلًا.. أحسنت.. الآن أضئ المسرح بالكامل"

جلستُ على أحد الكراسي في الظلام، أراقب الضوء يـزداد شـيئًا فشـيئًا، لأرى أروع منظر في حياتي. لقد كانت خلفية خشبة المسرح عبـارة عـن نقش رائـع لسـاعة ذهبيـة ضـخمة مطعمـة بالمـاس والعقيـق والعـاج، مملوءة بكل درجات الألوان القزحية في جنباتها.

في المنتصف يدور عقربا الساعة المصنوعان من العقيق الأحمر المطعـم ببعض الماسات البيضاء والزرقاء، وتصدر صوتًا مستمرًا متنـاغمًا وكأنهـا سيمفونية تعمل بلا توقف.

هل هذه ساعة الأمنيات!!؟ إنها رائعة الجـمال، ولكـن هـل هـذه هـي حقًا!!؟؟ فجأة أضـاء المســرح بالكامـل، فانبطحـتُ سريعًـا عـلى الأرض وبدأت أراقب. وجدت رجلين يدخلان مـن البـاب الرئيــسي للمســرح، يسير خلفهـما حارسـان مـدججان بالأسـلحة. يبـدوان كـرجلين مهمـين؛ فالأول يرتدي بـزة سـوداء أنيقـة وربطـة عنـق حمـراء، يبـدو جـادًا في حديثه واثقًا من نفسـه، بيـنما الثـاني تبـدو عليـه الأبهـة، ويرتـدي بـزة بيضاء ثمينة فـوق قمـيص حريـري أحمـر، وقبعـة تشـبه قبعـات رعـاة البقر، وحذاء مصنوعًا من جلد التمساح.

سارا معًا، يتبعهما الحارسان. وقفا أمام الساعة يحـدقان فيهـا وتجاذبـا أطراف الحديث، ولكن لم يكن بمقدوري أن أسمع ما يدور بينهما.

بدا الرجل صاحب البزة السوداء مهتمًا بتفاصيل الساعة وجمالها، بينما الآخر لم يكن مهتمًا بها، وإنما يريد أن ينصرف وكأنه يتوق لرؤية شيء آخر أكثر روعة وجمالًا. ماذا قد يكون أروع من هذه الساعة المذهلة!!؟ التفت صاحب البزة السوداء إلى الموجودين، وطلب منهم الخروج، وانتظر حتى اطمأن لخروجهم جميعًا، ثم أزاح أحد الوجوه

الذهبية المنقوشة في الساعة، فبدت شاشة إليكترونية، وضع يده عليها للتأكد من هويته، ثم أدخل رقمًا سريًا، فبدأت الساعة في الارتجاج، ودارت عقاربها بسرعة، وتحركت التماثيل المنقوشة فيها بعضها للخارج والباقي للداخل، ثم بدأت تنشق من المنتصف وتنفتح كالباب.

دخلا إلى جوف الساعة!! لقد دخلا فيها وبدأ الباب ينغلق. كانت أمامي بضع ثوان فقط لاتخاذ القرار. هل أتبعهما!؟ ولكن كيف سأخرج!؟ إنها فرصتي الوحيدة.

قفزت من مكاني، ومررت من الشق الذي يضيق شيئًا فشيئًا.

بمجرد أن عبرت، تعشَّقت التروس في بعضها مجددًا، والتأمت التماثيل المشقوقة، وعادت الساعة للعمل كأن شيئًا لم يكن!!

وجدتهما يسيران أمامي فاختبأت حتى ابتعدا.

بعد مرور دقيقة تقريبا بدأت أدرك أين أنا.. كنتُ في رواق واسع كبير ممتد أمامي حتى أني لا أرى نهايته، مفروش بالسجاد الأحمر الناعم. بدأت السير وقدماي ترتجفان، فأنا لا أعرف ما أنا مقبل عليه.

تفاجأتُ عندما وجدتُ على الجانب الأيمن من الرواق غرفة زجاجية يجلس فيها رجل مسن وحوله عشرات الكتب. يجلس على كرسي وثير وقبالته حاسوب يظهر على شاشته ما يشبه النبضات التي كانت قديمًا في أجهزة العناية المركزة، ولكنها تعلو وتهبط سريعًا، وهذا الرجل المسن ذو اللحية البيضاء يحدق فيها ويتحدث إليها. بعد قليل من المتابعة أدركت ما يحدث.. إنه يتحدث إلى الحاسوب!!

التفت إليّ الرجل فارتجف قلبي وفزعت، ولكنه تبسم ابتسامة مقتضبة وعاد إلى ما كان يقوم به.

سرتُ وعيناي زائغتان؛ فقد خاطرت لكي أصل إلى هذا المكان لأجد تفسيراً، ولكن الأمور تزداد غرابةً وتعقيدًا. وبدأت الغرف الزجاجية تتوالى الواحدة بعد الأخرى؛ فها هي سيدة تعزف الكمان، ورجل آخر غرفته عبارة عن معمل صغير مليء بالمركبات الكيميائية، وآخر يجلس وأمامه لوحة يرسم فيها، وآخرون غيرهم. الشيء الوحيد المشترك بينهم كان الحاسوب القابع أمامهم، يتحدثون إليه ويجادلونه وكأنه إنسان يناقشهم في أمر هام.

في نهاية الرواق وجدت الرجل ذا البزة البيضاء والحذاء الجلدي في غرفة زجاجية أيضًا، يجلس على الكرسي ويضع خوذة معدنية على رأسه تغطي عينيه.. أمر عجيب!!

شعرتُ بأن كل الأساطير الغريبة التي كان يخبرني بها (سالم) حقيقية. قررت أن أعود؛ فقد توغلتُ في مبنى العجائب هذا أكثر مما ينبغي، واطلعت على معلومات قد تؤدي إلى حتفي.

استرعاني الصوت القادم من نهاية الرواق. حثثت الخطى في هذا البهو الطويل الملتوي كالأفعى لأقترب من مصدر الصوت. إنه الرجل ذو البزة السوداء، يتجادل بشدة مع رجل عجوز طاعن في السن، قد انحنى ظهره وانطفأ نور إحدى عينيه.

لوّح العجوز بيده في الهواء وهو يقول:

- "لم لا تريدني أن أرى القلب!؟ لقد بذلت عمري ومالي في مساعدة والدك في مسعاه، وبعد كل هذه السنوات ترفض أن تطلعني على قلب الساعة!!؟"

وقعت هذه الكلمات على سمعي وقع الصاعقة! قلت في نفسي: "قلب الساعة!!! أللساعة قلب؟! هل هي تحيا!؟" كما أنه قال له "والدك". أهذا ابن السيد (عثمان)؟ إذن هذا (عادل) الذي يَذيع سيطه بحزمه وشدته.

استرقت السمع مجددًا. إن (عادل) يحاول تهدئته ولكن العجوز غاضب، ويلح في سؤاله:

ـ "لماذا نقلتم القلب إلى الدور العلوي من المبنى!!؟ إلى ماذا تخطط أنت وأبيك؟ هل ستنقلونه إلى مكان ما؟"

أنكر (عادل) كل ما قاله العجوز، وأقنعه أنه سيأخذه في الغد ليرى القلب.

ثم قال:

ـ "أنت تعلم جيدًا أن القلب يتطور يومًا بعد يوم، وقد احتجنا إلى مكان أوسع لنبقيه فيه"

ثم وعده: ـ"سآخذك لرؤيته في الغد"

انتهى الجدل بينهما، وسار (عادل) منتفخ الأوداج والغضب يملأه. لم أشعر بقدمي وهي تتبعه حتى وصل إلى مصعد، دخله وأغلق الباب.

وقفت أمام المصعد فوجدت أن المصعد له تدريجين: الأول مكتوب عليه "(-١) (-٢)... حتى (-٧)" عجبًا! أهناك سبعة طوابق ممتدة تحت الأرض!!؟ والتدريج الآخر يُظهر ثلاثة طوابق لأعلى.

كانت يداي ترتعدان وأنا أضغط على الزر الذي يدعو المصعد. انفتح الباب وقلبي يكاد ينفطر من الاضطراب. وقفت بداخله وحبات العرق

تنهمر من جبيني كالمطر، ولم أتعجب عندما وجدت أن المصعد لا يتحرك إلا برقم سري.

قلت لنفسي "لا بأس؛ فقد وصلت في ليلة واحدة إلى مكان لم يصل إليه أحد من قبل". فجأة انغلق الباب! لابد أن أحدًا ما طلبه للصعود.

في الطابق الثاني يقف أمام المصعد عالمان تبدو عليهما العبقرية ممزوجة بالجنون؛ فشعرهما ثائر، وملابسهما غير مهندمة، ويتجادلان في أمر يبدو عسير الفهم حتى عليهما.

انفتح الباب فدخلا، وقبل أن يكتب أحدهما الأرقام السرية قال الآخر:

ـ "صه! أتسمع هذا؟"

تجمد الآخر بعض الوقت، ثم قال:

ـ "هناك شيء بالأعلى.. احملني"

قفز على كتف زميله بلا استئذان، دفع باب الطوارئ الضيق في سقف المصعد، نظر حوله فلم ير سوى الأسلاك والأعمدة التي تحمل المصعد.

نزل وقال لرفيقه:

ـ "لا شيء"

ولو نظر فوق رأسه لرآني ممسكًا بالسلم المعدني بجانب المصعد. هبط المصعد تاركني معلقًا في السلم وقد غطّى الشحم ملابسي ووجهي.

بدأت أفكر في هذا المكان المظلم. لقد وضعت نفسي في مأزق؛ كيف لي أن أخرج من هنا!!؟ أنا لم أصن النعمة التي كنتُ فيها وتركت الفضول يقودني إلى حيث لا ينبغي.

عضلات ذراعي تشنجت من طول المدة التي تعلقت فيها بهـذا السـلم، وبدا لي أن المصعد لن يعود أبدًا، ثم تذكرت كلمات العجوز "القلـب في الطابق العلوي".
بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة سيكون التراجع حمقًا، كما أني لا أستطيع التراجع حتى لو حاولت، لذلك واصلت التقدم على السلم إلى الطابق الأخير.
بعد معاناة شديدة وصلت إلى الطابق الأخير. استلقيت على الأرض فاردًا أطرافي الأربعة بعضًا من الوقت لأستعيد عافيتي. وجدت نفسـي في مكان مظلم وكأنه مهجور. يبدو أن العجوز كان مخطئًا. لا شيء هنا.
استرعاني خيط ضعيف من النور يتسلل من إحدى الغرف.
دخلت فوجدت عشـرات الأجهزة متراصة بجانب بعضها في عمل دؤوب. كانت هذه الأجهزة ترسم ممراً يؤدي إلى جهاز كبير مغطى بقطعة كبيرة من القماش في نهاية الغرفة. اقتربت ببطء وأنا أشعر بأني سأكشف الستار عن أكبر أسرار البشرية.. إنه السر الذي من أجله بُنِي هذا المكان، وهبطتْ من أجله عشرات الطائرات.
كانت يداي ترتجفان، وهما تمتدان ببطء لسحب الغطاء.
سحبته فسقط على الأرض. ارتجف قلبي وارتعدت فرائصي مـما رأيـت. ما هذا!!؟؟ ما هذا الشيء القابع أمامي!!؟ لقد كانت أسطوانة زجاجيـة كبيرة مملوءة بسائل شفاف، معلق به كائن يبدو بشـريًا ولكنـه لـيس كذلك؛ فقد كان جسده أخضـر وكأنـه مغطـى بطبقـة مـن الفطريـات، وعشرات الأسلاك والخراطيم تخترق جسده. خرطوم من فمـه وآخـر في

أنفه، وهناك جرح كبير في ساقه تخترقه بعض الأسلاك، وعينه اليمنى مفقوءة وعينه اليسرى مغلقة. أخذت أدور حوله محاولًا أن أتبين هذا الشيء. فجأة انفتحت عينه اليسرى!!

كانت عبارة عن مقلة سوداء في المنتصف، يحيط بها اللون الأحمر وكأنها تغرق في الدماء، ثم سالت قطرة صغيرة من الدماء من عينه وامتزجت بالسائل المحيط به، ثم حرك رأسه ببطء نحوي، فشعرت بالرعب وهممت بالهرب، ولكن فات الأوان؛ فأجهزة الإنذار بدأت تدوي في المكان، وشعرت بالأرض ترتج من تحتي. لقد كانت أقدام عشرات الجنود الذين يجرون في حركة عسكرية، يحيطون بي مصوبين نحوي بنادقهم الليزرية. اقترب مني أحدهم حاملًا صاعقًا في يده، ثم صعقني به. بدأت الأصوات تتلاشى من أذني وتذوب الملامح من حولي والأضواء تختفي، فسقطتُ على الأرض فاقدًا الوعي.

** ** ** **

(٥)

اقتربت قافلة مكونة من أكثر مـن ثلاثمائـة شـخص مـن لافتـة مكتـوب عليها (تل الربيـع - تـل أبيـب سـابقًا). توقـف القائـد الملـثم فتوقفـت القافلة، وانطلق بفرسه نحو رجل عجوز يمتطي ناقـة ضـعيفة متهالكـة من طول السفر. نزع القائد لثامه فتكشف وجه (أحمد)، وقال:

- "يا شيخ (عبد العليم) لقد وصلنا إلى (تل الربيع).. ماذا الآن؟؟"

قال الشيخ:

- "منذ انتهاء الحرب و(تل الربيع) مدينة أشباح.. بيوت مهدمة وجسور مدمرة، لا يسكنها الآن إلا عصابات الأسلحة وتجار المخدرات ومن فر من حرب أو ثأر.. ولكنها رغم ما بها من مخاطر المكان الأمثل للعبور إلى (الأردن)؛ فالطريق الشمالي إلى (مكة) مقطوع تمامًا، أما الجنوب فقد امتلأ بجنود وجواسيس لمنع أي أحد من العبور. ليس ثمة مدينة عصية على سيطرة الملوك مثل (تل الربيع)؛ فلا يملكها أحد ولا يحكمها أحد، ولكن كل جزء من أجزائها يقبع تحت نفوذ وسيطرة زعيم أو قائد، لذلك عليك أن تكون شديد الحذر في حركتك، وألا تبدي أي نوع من أنواع القوة أو السيطرة".

تنهد (أحمد)، وعاد بفرسه إلى مقدمة القافلة، ووقف أمام القافلة وخطب فيهم:

- "يا معشر المسافرين"

انتبه الجميع، فتابع:

- "يا معشر المسافرين.. أغلبكم لم يكن يعرفني قبل شهر من الآن، ولكنكم رغم ذلك تبعتموني عندما وجدتم أن غايتي أنا ورفاقي مثل

غايتكم واحدة وهي الوصول إلى (مكة). منكم من يطلب الحج قبل موته، ومنكم من يرغب في اتباع الملك هناك، وقد وثقتم فيّ لأكون قائدًا لكم. ولأن واجبي كقائد أن أطلعكم على ما نحن مقبلون عليه، فإني لن أخفيكم سرًا. إننا مقبلون على مدينة اشتهرت في الأعوام الأخيرة بأنها مقصد القتلة والسُراق، ولا أحد منا منذ الآن سيكون آمنًا على حياته. لذلك من رأى أن غايته أهم عنده من حياته فليتبعني، ومن يرى أنه قد نال كفايته من رحلته فلينسحب الآن قبل فوات الأوان. سنتوقف هنا لنستريح لمدة ساعة ونعطي الفرصة للجميع ليقرر ما سيفعل".

بعد ساعة انطلقت القافلة دون أن تنقص فردًا واحدًا، بل زادت واحدًا كان قد سمع بهم وانطلق على أثرهم لمدة ثلاثة أيام حتى أدركهم قبل أن ينطلقوا بدقائق، وقد رأى الجميع أن هذه بشارة خير.

سارت القافلة في هدوء شديد حتى أن الدواب قد أدركت خطورة الموقف ولم تحدث صوتًا.

كان الدرب عسيرًا؛ فالطريق مليء بالسيارات المهشمة والمدرعات المتفجرة.

انطلق شاب قوي بجواده الأشم حتى حاذى (أحمد)، وقال له:

ـ "أتعلم؟ لقد استمرت المعركة في هذه المدينة سبعة أيام فقط. كانت السماء مضاءة بنيران المعارك طوال الليل، حتى أن الجنود لم يستطيعوا أن يميزوا بين الليل والنهار وحرم النوم على عيون الجميع. لقد قاتل والدي في هذه المعركة وأخبرني أن الجثث كانت تطفو على دمائها

ورائحة الموت في كل مكان حتى أن العقبان ظلت تحوم فوق المكان شهراً"
قال له (أحمد):
ـ "أنت محق؛ فأنا لم أر يومًا مثل هذا الدمار"
لم يكد ينتهي من جملته حتى رأى شبحًا لرجل يقف بعيدًا في الظل، توقف قبالته (أحمد) فتوقفت القافلة، ورفع يده ليحيي الرجل وقال:
ـ "لقد جئنا في سلام"
لم يحرك الرجل ساكنًا، وظل ينظر إليهم دون أن يتبينوا ملامحه، فانطلقوا جميعًا والصمت المشوب بالخوف يسيطر عليهم.
بدأت أعداد المراقبين تتزايد كلما استمروا في الحركة؛ ففوق الأبنية المتهدمة رجال ملثمون يحملون الأسلحة يحدقون فيهم، وفي الظلال المتناثرة يقف رجل أو رجلان. اقترب أفراد القافلة من بعضهم البعض وأعينهم زائغة تراقب في قلق.
تلونت السماء بلون الدم مع اقتراب الشمس من الغروب، واستطالت ظلال المنازل، وكلما استطالت نبت لها مزيد من الرجال المدججين بالأسلحة. فجأة قطع رجل على القافلة طريقها.
قال (أحمد):
ـ "أخيراً تحرك الماء الراكد"
كان الرجل طويل القامة مفتول العضلات كثيف شعر الرأس واللحية، يمسك مسدسًا فضيًا في يده، ويكشف صدره القوي المشعر وقال:
ـ "من أنتم وإلى أين تذهبون؟"
نزل (أحمد) عن جواده، وتقدم بضع خطوات للأمام، وقال:

ـ "نحن أناس مسالمون لا نية لنا في القتال"
فانطلقت ضحكات جافة خشنة في سخرية من أفـواه الرجـال الـذين لا يزالون في الظلال، وقال رجل منهم:
ـ "أنتم تقاتلوننا!!!؟"
استرسل (أحمد) في حديثه دون أن يلتفت إليهم:
ـ "نحن فقط نريد العبور"
سأله الرجل:
ـ "ولِمَ تريدون العبـور مـن هنـا!؟ فلـم يعـبر أحـد هـذه المنطقـة منـذ أعوام"
أجابه (أحمد):
ـ "إننا نتوجه إلى (مكة)"
تفاجأ الجميع من صراحة (أحمد)، حتى من معه تعجبوا. نظر إليه الرجل بإعجاب، وقال:
ـ "لقد أعجبتني جرأتك.. نِعم القائد أنت! إذا سمحت لك بالعبور بهذا العدد الكبير سيظن الجميـع أني خفـت مـنكم ومـن عـددكم، وأنـا لـن أضحي بسمعتي من أجلك؛ فالسمعة مهمة للعمل"
ازدرد (أحمد) لعابه وقال:
ـ "لابد من وجود حل بديل"
حك الزعيم لحيته بفوهة مسدسه قليلًا ثم قال:
ـ "يوجد حل آخر.. يمكنكم أن تدفعوا مقابلًا للعبور والحماية، ويتحول الأمر إلى عمل"
انفرجت أسارير (أحمد) وقال:

ـ "كم تريد؟؟"
ـ "كل ما معكم" قاطعه الرجل.
واتجه نحوهم مجموعة من الرجال، فتشوهم وأخذوا كل ما معهم من أموال.
قال له الزعيم:
ـ الآن يمكنكم العبور، وسيرافقكم أحد رجالي حتى المنطقة التي ينتهـي فيها نفوذي.. أما ما بعد ذلك فهو على عاتقكم"
في اليوم التالي وعند وقت الزوال، توجه الرجل الذي رافقهم بأمر الزعيم إلى (أحمد) وقال له:
ـ "أترى هذه الطائرة المحطمة فوق هذا البرج!؟ إنها حيث ينتهي نفوذ سيدي، وما بعد ذلك عليكم أن تواجهوه وحدكم"
قبل أن يهم بالانصراف، قال:
ـ "سأعطيكم نصيحة مجانية.. لا تثقوا أبدًا بزعيم عصابة (الثور)؛ إنه رجل غادر لا يؤتمن، ولا تخبروه أنكم متوجهون نحو (مكة) فقد يسلِّم رؤوسكم إلى ملوك الجنوب مقابل المكافأة".
وانطلق الرجل عائدًا من حيث جاء.
مر الجميع وهم يتأملون هذه الطائرة التي سقطت في البرج برأسها واخترقته كسكين في قطعة من الكعك. لم يتهدم البرج من هول الصدمة ولم تنفجر الطائرة، بل اكتفت بالبقاء محبوسة فيه إلى الأبد. استمر مسيرهم طوال النهار والليل؛ فلم يرغبوا في مواجهة هذا الثور الذي حذرهم منه الرجل. مع أول بصيص للصبح دويّ إطلاق نار في الهواء، ثم رأوا عشـرات الرجال المسلحين يقتربون، يتقدمهم رجل نحيف

أشعث الشعر، كاشفًا عن ذراعيه الدقيقتين، ويحمل بلطة في يده. رغم أنه كان يبدو هزيلًا إلا أنه كان مخيفًا، فالشفقة لم تجد يومًا الطريق إلى عينيه ووجهه صارم. كانت عيناه مثالًا لعيني قاتل احترف القتل.

تقدم نحوه (أحمد) محاولًا مخاطبته، ولكن الرجل لم يبد أي رغبة في الكلام، وأخبره أن الكلام يجب أن يكون مع سيده، أمر رجاله فأحاطوا بهم واقتادوهم.

في مبنى كبير يبدو كمخزن قديم، يجلس في منتصفه رجل ضخم كثـور، أمامه بعض الطعام وزجاجة من النبيذ، ويحيط به بعـض مـن أتباعـه، دخل الرجل النحيف يصطحب (أحمد)، وقال:

ـ "لقد أحضرت قائدهم يا سيدي"

نظر إليه الزعيم باستحقار، ثم عاد إلى تناول الطعام دون أن ينطق بكلمة. ظل (أحمد) واقفًا حتى فرغ الرجل من طعامه ثم التفت إلى (أحمد) وقال له:

ـ "أمتوجه إلى (مكة) أنت؟"

لم يكد (أحمد) يجيب، حتى قال له الرجل بثقة:

ـ "أنت بالفعل متجه إلى (مكة).. أتعرف؟ عندي مقدرة عجيبة.. أنا أنظر إلى الرجل فأعرف ما يريده وما يفكر فيه دون أن يتكلم؛ فعلى سبيل المثال أنا أعرف ما تفكر فيه الآن.. أنت تفكر في حدوث معجزة الآن تنقذك وقومك مني"

ثم رفع زجاجة النبيذ يعب منها عبًا، ثم التفت إلى (أحمد) وسأله:

ـ "هل تؤمن بالمعجزات؟"

أجابه (أحمد) بثقة أذهلت كل الحاضرين:

ـ "نعم"
استفزت هذه الاجابة الزعيم، فنهض كعملاق قـام مـن سـبات عميـق، واقترب من (أحمد) حتى شـعر الأخـير بأنفاسـه الكريهـة تكـاد تخـترق وجهه، وقال:
ـ "اذن ادع إلهك، أي إله كان الـذي تعبـده، أن ينقـذك منـي؛ لأني لـن أتركك تذهب أنت ولا قومك.. سأقتلك أنت فقـط لأجعـل منـك عـبرة، أما هم سيدفع ملك (عكا) مبلغًا جيدًا فيهم كرقيق له.
ثم دفع (أحمد) فسقط على الأرض كريشة دفعتها الريح، وقال:
ـ "خذوه ليدعو ربه وموعدنا عند غروب الشمس"
مرت الدقائق كدهور؛ فالانتظار والتعلق بالأمل حيث لا مجال للنجاة أسوأ احساس قد يواجهه إنسان. كان الجميع غارقين في الصلاة والابتهال إلى الله ليخلصهم مما هم فيه، عندما قدم الرجل النحيف إلى (أحمد) وقال له:
ـ "لقد حان الوقت"
نهض بعزيمة وجلد ولم يبد خوفه ولو للحظة.
بمجرد أن اقترب من الزعيم أشار له وقال:
ـ "على ركبتيك"
استند (أحمد) على ركبتيه، ووجّه الرجل المسدس إلى جبهته حتى لامست فوهة المسدس رأسه، ثم وضع الزعيم يده بجانب أذنه وكأنه يحاول أن يسمع صوتًا بعيدًا، ثم قال:
ـ "أنا لا أسمع شيئًا! ألم تدع ربك!!؟ أين هو لينقذك!!؟ لم لا تنزل عـليّ صاعقةٌ من السماء أو تخرج دابة من الأرض لتلتهمني!؟"

ثم نظر إلى كل الحاضرين حوله وقال:
ـ "انظروا إلى هذا الدمار!!! أي إله يصنع هذا!!؟ إن كان هناك إله فقد مات منذ زمن بعيد"
ثم وجه المسدس مجددًا إلى رأس (أحمد) وقال:
ـ "لقد خذلك إلهك"
لم يكد ينتهي من عبارته، حتى سمع الجميع صوت هدير قوي، وكأن شلالًا هادرًا تندفع مياهه بقوة نحوهم. امتقع وجه الرجل، والتفت ببطء نحو مصدر الصوت، ووضع يده فوق عينيه ليحجب أشعة الشمس الغاربة ليتمكن من الرؤية.
فجأة ودون سابق إنذار، تحولت الأرض من خلفه إلى جحيم، وتطاير الرجال كالجمر. جثا الرجل على ركبتيه بجوار (أحمد) مذهولًا من هول الصدمة، ثم ظهرت طائرة مروحية في الأفق تطلق النار. هرب المجرمون مفزوعين، ولم يبق سوى (أحمد) وقافلته، والزعيم الذي لم يفق بعد من صدمته.
هبطت الطائرة، ونزل منها شاب وسيم مفتول العضلات مهندم الملابس، تتراقص خصلات شعره في الهواء، وتوجه نحو الزعيم وأخرج مسدسًا وصوبه نحو رأسه بنفس الطريقة التي كان يوجهها لـ(أحمد).
دوى صوت الرصاصة في الأرجاء مخترقةً رأسه، ثم التفت الشاب إلى (أحمد)، ومد يده له ليساعده على النهوض. نهض (أحمد) والذهول يتملكه. اجتهد أن يسأله:
ـ "من؟.. من أنت!!؟؟"
ابتسم الشاب، وأمر جنوده ليحرروا الباقين، ثم قال لـ(أحمد):

ـ "رافقني إلى الداخل"

بمجرد أن دخلوا، توجه الشاب إلى زجاجة النبيذ فدفعها، فسقطت على الأرض متكسرة، وقال:

ـ "لقد أرسلني إليك أمير المؤمنين"

تعجب (أحمد) وقال:

ـ "من هو أمير المؤمنين؟؟"

ابتسم الشاب وقال:

ـ "إنه الرجل الذي قطعتَ كل هذه المسافة لمقابلته.. إنه (محمد بن (عبد الله)"

تعجب (أحمد) وسأله:

ـ "كيف عرف بي!!؟"

هز الشاب رأسه وقال:

ـ "أنا لا أدري كيف عرف بك.. ولكنه أخبرني أن آتي إلى هذا المكان، وقال عندما تصل إلى هناك ستجد رجلين جاثيين على ركبتيهما، فأنقذ صاحب علامة الصلاة على جبينه واقتل الآخر"

اتسعت حدقتا (أحمد) وقال:

ـ "كيف عرف بكل هذا!؟ هل له رابطة مع الجن!؟"

انفتح الشاب في الضحك وقال:

ـ "أتتوقع من رجل حافظ للقرآن أن يقيم عهدًا مع الجن!؟ ولكنه رجل ذو فطرة نقية نقاء اللبن في الضرع. إن جزيرة العرب كلها تبايعه الآن. وقد طلب مني أن أحضرك إليه لتقابله"

هز (أحمد) رأسه رافضًا وقال:

ـ "رغم أني أبغى لقاءه إلا أني لن أترك قومي وحدهم"
ابتسم الشاب مجددًا وقال:
ـ "لقد توقع أن تقول هذا الكلام، لـذلك طلـب منـي أن أخـبرك رسـالة هذا نصها 'إذا نفذ منك المـاء، فابحـث عـن العجـوز في البـئر المعطلـة، سيدلك على الماء'"
تعجب (أحمد) وقال:
ـ "ما معنى هذا الكلام!؟؟"
قال الشاب:
ـ "لا أدري.. ولكن تذكره فقد ينقـذك يومًـا مًـا.. لا يجـرؤ أحـد الآن في (تل الربيع) على الاقتراب منك أو جماعتك، لقد انتهت مهمتي هنا"
ثم ركب الطائرة وحلقت مبتعدة مع الشمس.
في اليوم التالي، قبل أن تستأنف القافلة سيرها، نظر (أحمد) إلى السماء وابتسم وقال:
ـ "من قال إن زمن المعجزات قد ولى!؟"
ثـم انطلقـت القافلـة تواجـه المجهـول ولكـن بـأقوى سـلاحين يملكهـما الإنسان: الإيمان والأمل.

** ** ** **

(٦)

في الفاتيكان، قد زالت جميع الصلبان وحل محلها تمثال رجل له جناحين أبيضين كبيرين، يمسك في يمينه سيف وفي يسراه كتاب، ويحدق في السماء. وقد امتلأت ساحة الكنيسة الكبرى برجال ونساء يرتدون عباءات بيضاء أكمامها مزخرفة باللون الذهبي، ويغطون رؤوسهم بأوشحة بيضاء.

وقف في الشرفة رجل عجوز وجهه مجعد به شامة كبيرة سوداء تجعل وجهه منفراً، ويتكئ على عصا صغيرة لها رأس أفعى. رفع يديه فارتجت الساحة بأصوات الآلاف، فابتسم ابتسامة تنم عن رضا وغرور، ثم أنزل يده فخفت الصوت شيئًا فشيئًا حتى هدأ تمامًا، ثم بدأ يخطب فيهم:

- "إخواني وأخواتي أبناء إله النور العظيم.. فليتأمل كل واحد منكم المكان الذي يقف فيه. لقد كان هذا المكان يعج بالرهبان والقساوسة يحدقون في الصليب ويرون فيه الأمل، الحق، العدل. الآن أين الصليب!!؟ لقد فنى.. زال، ومات الأمل الذي تعلقوا به. هُزم الإله الذي يعبدونه في عقر داره.. أي إله هذا الذي يرضى بقتل عبيده بعذابهم وفنائهم، ولم يعدل حتى بين أبنائه. عندما جاءه ابنه الأصغر، أبانا.. إلهنا العظيم يدافع عنا ويسأله 'لِمَ تعذب خلقًا خلقتهم بيديك ونفخت فيهم من روحك فتجعلهم يقتلون بعضهم بعضًا!!؟ ولِمَ تختبرهم بالأمراض والآلام طالما أن النتيجة قد كتبتها مسبقًا!!؟' غضب عليه أبوه وأمر أخاه الأكبر (ميكائيل) بنفيه عن السماء لأنه دافع عنا. وكأي أمير نبيل نُفِي عن مملكته، فإن الملك يأمر أتباعه وجنوده

بتشويه صورة المارق وصناعة القصص المفبركة عنه، ليخاف منه الأطفال، حتى لا يسمع له أحد ويفزع منه الجميع. ولكننا نحن الذين سمعنا صوت إلهنا الرفيق في غياهب الظلمات والأسر، واتبعناه على مر السنين، حتى تمكنّا أخيراً من الأرض منتظرين عودته.. وسيعود قريبا"

امتلأت الساحة بالصياح والفرح. زعق بأعلى صوته وخرج الرذاذ من فمه:

ـ "سيعود قريباً ليحرر الأرض من نيرها، ويقوم بثورة على السماء ليستعيد ملكه ويبني مملكة جديدة فيها البشر هم السادة.. لذلك فابتهلوا معي لإلهنا الرحيم ليمنحنا القوة لنهلك هؤلاء الذين هم أعداؤه اليوم على أنقاض الصليب، وغدًا في (مكة) على أنقاض الكعبة التي سنقوضها حجراً حجراً"

امتلأت الساحة بالضجيج، فغادر العجوز الشرفة ببطء يتكئ على عصاه، ثم جلس على كرسي وثير، سعل بشدة فاقترب منه أحد اتباعه بكوب يحوي الدواء، تناوله العجوز ثم نهض مجددًا وقال: "ساعدوني حتى أصل إلى السرداب"

كان السرداب رطباً بارداً، انتشرت عشرات المشاعل على جانبيه لإضائته وتدفئته، وفي نهايته غرفة صغيرة بها طاولة مستديرة. جلس العجوز وبعض رهبان النورانية، يبدو من سمتهم أنهم أهل الرأي وأصحاب العقد والحل.

نظر أحدهم إلى العجوز وقال:

ـ "إذن يا (حاييم) أخبرنا ماذا قال لك جاسوسنا في (إنجلترا)"

سعل العجوز سعالًا جافًا واضعًا يده على فمه، ثم قال:

ـ "إن المسيحيين يعيدون ترتيب صفوفهم هناك، وأقاموا جيشًا عظيمًا.. يبدو من استعداداتهم أنهم ينوون الكر قريبًا"
اكفهرت وجوه الحاضرين، وقال أحدهم:
"إذن ما العمل!؟؟ إن جيوشنا قوية ولكننا سنواجه أكثر من جبهة؛ فالمسلمون يتوحدون تحت راية ملك جديد في (مكة)، ويبدو قويًا وحكيمًا وليس متعجرفًا مثل باقي ملوك العرب"
أجابه (حاييم) بثقة وقال:
ـ "لا تقلق.. لقد اقترب الموعد؛ فقد أخبرني كبير المنجمين أن النجم ظهر أخيرًا"
تهللت أسارير الجميع وبدت على وجوههم السعادة.
واستطرد (حاييم):
ـ "وجواسيسنا أطلعوني على أخبار طيبة من مصر، ولكني لن أخبركم بها حتى أستوثق من معلوماتي. والآن جهزوا الهاتف الفضائي؛ لأني سأجري مكالمة"
سأله أحدهم:
ـ "ومن على الأرض يملك هاتفًا فضائيًا لتخاطبه!؟؟"
التفت إليه (حاييم) وهو يسير ببطء وقال:
ـ "(عثمان الغنام)"
تعجب الجميع وبدت على وجوههم الدهشة؛ فكيف لعدو أن يحادث عدوه اللدود بهذه البساطة!!؟

** ** ** **

(٧)

مرت ثلاثة أيام منذ أن قبضوا عليّ في أعلى برج الساعة ودوى جهاز الإنذار. انتشرت الشائعات أن (عثمان الغنام) قد قتل الدخيل، وعاش (سالم) الذي دلني على الطريق في رعب منتظرًا نهايته.

أما الحقيقة، فقد كنتُ معلقًا من قدمي طوال ثلاثة أيام في أحد الطوابق السفلية من الساعة في غرفة ضيقة كريهة الرائحة. دخل رجل ضخم البنيان واقترب مني وأنا لا أزال رأسًا على عقب، وقطع الحبل، فسقطتُ برأسي على الأرض. شعرتُ بالدماء تندفع من رأسي الذي كاد ينفجر نحو باقي جسدي، ثم حملني إلى غرفة أخرى وألقاني على الأرض.

كان وجهي لا يزال ملتصقًا بالأرض، عندما اقترب رجل وقال بصوت هادئ رخيم:

ـ "انهض يا بني"

رفعتُ رأسي ببطء لأرى رجلًا قد جاوز الخامسة والستين وربما السبعين لكنه لا يزال قويًا نشيطًا، يلبس نظارة طبية ويرتدي بزة سوداء أنيقة، فقلت له بصوت مبحوح:

ـ "أحتاج إلى الماء"

أشار إلى الرجل الضخم وقال:

ـ "أجلِسه وأحضر له كوبًا من الماء"

جلس الرجل على الكرسي المقابل لي، يراقبني وأنا أعب الماء بشراهة حتى كاد يخرج من أنفي، وبعد أن انتهيت ابتسم وقال:

ـ "أتريد المزيد؟"

أومأت له بالإيجاب، فأشار إلى الرجل الضخم ليحضره، ثم قال:
ـ "دعني أعرفك بنفسي.. أنا (عثمان الغنام)"
وقع الاسم على أذني وقع الصاعقة، وحاولت أن أتكلم ولكني تلجلجت فآثرت الصمت.
قال (عثمان) والابتسامة لا تفارق محياه:
ـ "أنت رجل فضولي، وقد يقتلك الفضول يومًا ما"
ثم تناول جهاز تحكم عن بعد وقال لي:
ـ "انظر خلفك.. أتعرف هذا الجهاز؟"
قلت له:
ـ "نعم إنه تلفاز!"
قال:
ـ "في الحقيقة إنها شاشة مرتبطة بكاميرات المراقبة"
ثم ضغط على أحد الأزرار، فأضاءت الشاشة مقسمة إلى قسمين، وقال:
ـ "انظر إلى الجانب الأيمن.. إنه المسرح الذي اختبأت فيه.. وانظر إلى الجانب الآخر.. إنه البهو الواسع الذي سرت فيه"
ثم ضغط زرًا آخر، فبدأت الصور تتحرك بسرعة للوراء، حتى وصل إلى لحظة معينة، وقال:
ـ "هنا.. انظر يا بني.. أليس هذا أنت؟"
أظهرتني الصور وأنا أختبئ في المسرح، ثم وأنا أسير في البهو وصولًا إلى المصعد.
عندها أوقف (عثمان) الصورة وقال:

ـ "أتعرف؟ لقد كنتُ أراقبك في تلك الليلة منذ جاوزت باب المطبخ حتى وصلت إلى قلب الساعة، وطلبت من الحراس ألا يقبضوا عليك، بل يُخلوا لك الطريق"

اتسعت حدقتا عيني وانتفض قلبي، وقلت في نفسي: "ماذا يحـدث!!؟"

ثم قلت له:

ـ "لماذا؟"

تنهد (عثمان) وقال:

ـ "بل أعرف أن (سالم) هو الذي أوصلك ودلَّك إلى طريقة الدخول.. إنه رجل طيب ولكن عقله..."

وأشار بأصبعه نحو رأسه موحيًا بالجنون، ثم نهض وقال:

ـ "إننا نراقب (سالم)؛ فكل من يرغب في معرفة شيء عن الساعة يذهب إليه. لقد استوثقنا أنك لست جاسوسًا"

قلت له بغضب:

ـ "إذن لم تركت كل هذا يحدث!!؟"

قال:

ـ "لقد كان اختبارًا"

ازدادت الأمور غرابة وتشويشًا في رأسي، وقلت له:

ـ "اختبار!!! وهذا التعذيب اختبار!!!؟ اختبار لماذا!!؟؟"

قال (عثمان):

ـ "سأجيبك ولكن عليك الآن أن تأكل وتستريح؛ لأن الغد سيكون يومًا طويلًا"

خرج دون أن يزيد كلمة واحدة.

قضيت الليلة حبيس غرفتي، وفي الصباح جاءني نفس الرجل الضخم وقال:

- "يرغب السيد (عثمان) في مقابلتك"

وجدته واقفًا أمام مكتبه يحدق في لوحة على الجدار، ابتسم بمجرد أن رآني وقال:

- "يبدو أنك مازلت غاضبًا"

تجهمت مُظهرًا عدم رضاي.

نظر مجددًا إلى اللوحة وقال:

- "ما رأيك في هذه اللوحة؟"

لقد كانت عبارة عن مجموعة من الخطوط المتداخلة والمتشابكة مع بعضها البعض، فقلت له:

- "إنها رسمة لطفل أراد أن يرسم طائرة، ثم عدَّل رأيه ليرسم سفينة، ولكنها أصبحت في النهاية شيئًا آخر"

ضحك بشدة وقال:

- "تعجبني صراحتك"

ثم قال:

- "امش معي قليلًا"

أثناء سيرنا قال:

- "لقد تجولتَ في المبنى ورأيت أشياءَ لم يرها أحد قبلك، كما أنك جريء وصادق.. لذا أخبرني ما الذي استنتجته من هذه المغامرة هنا؟؟"

تنهدت ثم قلت له:

- "لقد كنتُ أظن في الماضي أن الساعة عبارة عن آلة تعمل كحاسوب ضخم ومتطور، ولكن بعدما رأيتُ الغرف الزجاجية المتراصة والكائن الأخضر في الطابق العلوي بدأتُ أزعم أن هذا المكان يحمل أسرارًا أكثر مما ظننت، خاصةً وأن في الأمر كائنات فضائية"

لم يكد يسمع (عثمان) هذه الجملة حتى انفتح في الضحك، واحمرّ وجهه من شدة الضحك وتعذرت أنفاسه، ثم قال:

- "لا توجد كائنات فضائية هنا.. إن ما رأيته إنسان مثلي ومثلك، ولكنه يعاني من حالة خاصة"

نظرت إليه بدهشة. ما هذه الحالة الخاصة التي تجعل إنسانا أخضر اللون!؟؟

امتد بنا المسير حتى وصلنا إلى المصعد، فدخلناه وصعد بنا إلى الطابق العلوي. كان فارغًا من البشر كما تركته، ولكنه الآن أصبح مزدحمًا بالآلات. اتجه نحو إحدى النوافذ التي يدخل منها ضوء الشمس بقوة وقال:

- "اقترب يا بني.. سأخبرك بحقيقة الساعة"

وقفت بجواره أنظر إليه بشغف قوي، يدفعني إلى اللحظة التي انتظرتها طويلًا.

قال (عثمان):

- "لقد بدأت فكرة بناء مثل هذه الساعة منذ خمسين عامًا للوراء، عندما قام أحد العلماء العباقرة بتمويل من رجل أعمال طموح في ألمانيا بتجربة سرية؛ حيث حاول أن يبني عقلًا جمعيًا موحدًا يجمع كل العلماء؛ فقد تمكن هذا العالِم من تطوير جهاز إذا وُضِع فيه

الحمض النووي لشخص معين، فإنه يقوم بعمل محاكاة كاملة لمخه وأفكاره ونظرياته. حتى وإن كانت الأحماض النووية لموتى، فإن هذا الجهاز قادر على محاكاة عقولهم أيضًا. لقد كان جهازًا عظيمًا، ولكنه كان يحتوي على عيب واحد.. عيب خطير. كلما تزايدت العقول الموضوعة فيه فإن الآراء تتناقض والنظريات تختلف وتتعقد باختلاف رؤية كل عالِم وبيئة كل مفكر، لذلك خرجت النتائج متضاربة في غير ترتيبها المنطقي، بالتالي فإن الجهاز لا يقدر على إنتاج معلومات واضحة أو استنتاجات منطقية. وبعد شهور قليلة من بدء العمل به، توقف عن العمل بسبب هذا العيب الكارثي. وعندما بدأت الحرب وضعت يدي على هذا الجهاز، وأحضرتُ فريقًا من أفضل العلماء لحل هذه المشكلة. انقضت أعوام طويلة وعقول بارزة لتصل إلى الحل الأمثل؛ وكان ألا تُخزَّن هذه المعلومات على ذاكرة إلكترونية بل في رأس بشرية؛ فالرأس البشرية تستطيع تقبّل مليارات المعلومات في وقت قصير، مع أن أقل من ١٠% فقط من خلاياه تكون محفَّزة، ولكن علمائي توصلوا إلى علاج يجعل أكثر من ٧٥% من الخلايا محفَّزة، ثم جاءت الخطوة التالية من المشروع، وهي إيجاد عقل بشري قادر على الاستجابة لكل هذه المخاطر دون أن ينهار من كم المعلومات المندلقة فيه، أو يدمر نفسه في عملية معالجة البيانات وترتيبها. باءت عشرات المحاولات بالفشل، إلى أن جاء اليوم المجيد الذي وجدنا فيه جنديًا مصابًا إصابة بالغة في إحدى المشافي. لا نعلم من هو ولأي جانب يقاتل، ولكنه كان حالة ميئوسًا منها؛ عين مفقوءة وقدم مجروحة بشدة، وأمعاء ممزقة وأضلاع متكسرة، ولكنه كان الحالة الوحيدة التي

استجابت مع الدواء وتقبل عمل الجهاز فأصبح هو قلب الساعة. وقد سُميت بهذا الاسم لأن هذا الجهاز هو أمنية.. أو إن شئت قل "يحقق أمنية كل عالِم، فيلسوف أو أديب؛ لأن هذه الساعة أصبحت مكتبة للعقول العظيمة في كل العالم، يفد إلى هنا كل إنسان يرغب في المعرفة والعلوم. إن الشاشات التي رأيتها في الغرف الزجاجية إنما هي للساعة، تحادثهم وتجادلهم. ولماذا سميت بـ(الساعة) وليس أي اسم آخر!؟؟ لأن العقول المزروعة فيها تنتمي لأزمنة مختلفة وأماكن متفرقة، فكان لزامًا وضع جهاز ما يشبه الساعة؛ لتعي جميع العقول أنها تعمل في وقت واحد، وتتزامن في أدائها. وقد نجح هذا الأمر، وبدأت العقول تتفاعل مع بعضها بسلاسة منقطعة النظير".

وقفت مشدوها لا أدري ما أقول، ثم سألته:

ـ "وكل هذه الطوابق السفلية؟؟"

قال:

ـ "الطوابق تحتوي على علوم وأفكار كنت أظن أنا وأنت أنها مستحيلة، واختراعات سبقت الحضارة البشرية بأكثر من مائة عام"

قلت له:

ـ "وماذا سيكون عملي إذن؟؟"

ابتسم وقال:

ـ "اصبر قليلًا؛ فالقلب لم يكتمل بناؤه بعد"

** ** ** **

(٨)

وصلت القافلة إلى صحراء الأردن القاحلة. الشمس تسلط أشعتها على الرؤوس بلا رحمة، والرمال تصفع الوجوه وتعمي الأبصار. يسيرون بخبرة الشيخ (عبد العليم) ومعرفته.

نزل الشيخ عن ناقته، وصعد كثيبًا رمليًا مرتفعًا وحدق في الأفق، ثم نادى في القافلة: "الماء في اتجاه الشرق"، فتهللت أسارير الجميع وانطلقوا إلى حيث أشار الشيخ.

وقف الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، عندما نظروا في البئر ولم يجدوا قطرة ماء واحدة، وإنما رمال فوقها رمال. ازدرد الشيخ لعابه السميك في حلقه الجاف ثم قال:

ـ "لابد أن الماء قد نفذ من البئر"

نظر إليه (أحمد) بعينيه الحائرتين، وقال:

ـ "ما العمل إذن؟؟"

دارت رأس الشيخ (عبد العليم) وقال:

ـ "لا أدري"

مر يومان، واستسلم الجميع لليأس. نفذت المياه تمامًا فاضطروا إلى نحر الجمال ليستفيدوا من الماء في جوفها.

جلس أحد أفراد القافلة بجوار الشيخ (عبد العليم) وقال:

ـ "يا شيخ ألا يمكننا حفر بئر؟؟"

ابتسم الشيخ في سخرية وقال:

ـ "لو حفرنا كلنا لمائة يوم في هذه الصحراء الجرداء، ما أخرجت لنا قطرة ماء واحدة"

فقال الشاب:

ـ "ألا يوجد بئر آخر!؟؟"

تنهد الشيخ في ضجر وقال:

ـ "لا.. لا يوجد. كانت هناك بئر على طريق التجارة القديم، ولكنها مهجورة الآن فقد نفذت منها المياه"

انتفض (أحمد) وقال:

ـ "أين هذه البئر؟؟"

تعجب (عبد العليم)، ولكنه أشار نحو الغرب، وقال:

ـ "مسير نصف يوم في هذا الاتجاه"

فنهض (أحمد) وطلب من الشيخ (عبد العليم) وثلاثة من أفراد القافلة أن يذهبوا معه إلى البئر، فتعجب الجميع وظن أفراد القافلة أن (أحمد) يتهرب من مسؤوليته، ولكنه طمأنهم وأخبرهم بما أخبره به الرجل الذي كان في الطائرة، وقال: "لا أمل لنا الآن إلا في نبوءة أمير مكة".

وصلوا إلى البئر عند منتصف الليل، فاقترب أحدهم بمصباح وصوبه نحو عمق البئر، ولكنه تراجع بسرعة وقال: "يوجد رجل بالأسفل.. ولكنه ميت"، فأخذ (أحمد) المصباح منه، وأسرع نحو البئر، والتفوا جميعًا حول الحافة يحدقون بعيون مضطربة، فوجدوا شيخًا يجلس فاردًا ساقيه مسندًا ظهره على جدار البئر، ويحدق في السماء بملامح جامدة، ووجه أبيض قد هربت منه الدماء.

قال (أحمد):

ـ "يبدو أنه مات منذ فترة قصيرة"

فجأة لوّح لهم الشيخ في البئر بيده وقال: "مرحبا"، ففجعوا من حركة الرجل المفاجئة، ثم قال له (أحمد):

ـ "هل أنت بخير؟ هل أنت مصاب بكسر أو جرح؟"

فأجابه الشيخ:

ـ "أنا بخير.. شكرًا لسؤالك"

كانت إجابة الرجل غريبة؛ فقد بدا أنه لا يمانع وجوده في هذا البئر، ولم يطلب منهم حتى مساعدته، فمرت عدة ثوان قبل أن يبادر الشيخ (عبد العليم) بالكلام وقال:

ـ "هل نُلقي لك حبلًا؟؟"

فأجابه الرجل بسلاسة:

ـ "سأكون شاكرًا لو فعلت"

ألقوا له الحبل، فتسلق البئر برشاقة قرد أذهلتهم، حاول (أحمد) أن يعطيه يده ليساعده، ولكن الرجل لم يمد يده وإنما قفز من البئر إلى الصحراء، فمط ذراعيه وفرد ظهره، وظل يحدق في السماء، ثم التفت إليهم وقال:

ـ "انظروا! لقد ظهر النجم أخيرًا!"، وأشار بيده نحو نجم في السماء.

فقال (أحمد):

ـ "أي نجم!؟؟"

لم يجبه الشيخ، وإنما استمر في السير، فحثوا الخطى ليلحقوا به، فقال الرجل:

ـ "هل أرسلكم صاحب (مكة)؟؟"

فدهش الجميع لسؤاله، وقال له (عبد العليم):

ـ "كيف عرفت!!؟"
لم يجبه مرة أخرى، وإنما استمر في السير وقال: "اتبعوني"
صعدوا كثيباَ رملياً، ثم التفت إليهم الرجل وقال: "احفروا هنا"، فهرعوا إلى الحفر، ولكن (عبد العليم) استوقفهم وقال:
ـ "ماذا تفعلون!؟" ثم نظر إلى الرجل وقال: "إنه كثيب رملي.. مهما حفرنا فلن نجد الماء"
فقال الشيخ:
ـ "ومن قال إننا نبحث عن الماء!؟"
فألقى (أحمد) المجرفة من يده وقال:
ـ "لماذا نحفر اذن!؟؟"
ثم اقترب من الرجل وقال:
ـ "إنك رجل غريب، دائم الابتسام، وتحدق طوال الوقت في السماء. وكيف بحق الله سقطت في البئر دون أن تصاب بخدش حتى!!؟"
فقال الرجل:
ـ "إنه قضاء الله.. إذا أرادني أن أسقط في البئر دون أن أصاب فإنه يسبب الأسباب"
فتأفف (أحمد) وقال:
ـ "على الأقل أخبرني باسمك"
فقال الرجل:
ـ "أنت عبد لله وأنا عبد لله وكلنا عبيد لله، فادعني (عبد الله)"
أشاح (أحمد) بوجهه في ضيق، ثم عاد إلى الرجل وقال:
ـ "إذن لم تريدنا أن نحفر هنا يا (عبد الله)؟؟"

ابتسم الشيخ فبدت أسنانه البيضاء المتراصة رغم كبر سنه فزاد الأمر غرابة ثم قال:

- "إذا أردت الماء فاحفر"

بعد ساعة من الحفر، اصطدمت مجرفة أحدهم بجسم صلب، فقال: "وجدتُ شيئًا"، فإذا بهما صندوقين معدنيين في زكيبة من القماش المهترئ. فتحوا الصندوق الكبير فوجدوه مليء بسبائك الذهب، أما الصندوق الثاني فكان به مقراب (تليسكوب) ذهبي مزخرف، فحمله الشيخ برقة وكأنه يحمل طفلًا بين يديه.

لدى وصولهم إلى القافلة تهللت وجوه أفرادها، ولكنهم عندما وجدوا أن (أحمد) عاد بخفي حنين ولم يجلب الماء وإنما جلب صندوقًا من الذهب، صاح أحدهم قائلًا: "وما نفع الذهب إذا كنا سنهلك!؟؟"

فابتسم الشيخ وقال: "لا تقلق.. سيأتي الماء غدًا"

فقال (أحمد) بسخرية:

- "وكيف سيأتي الماء!!؟ هل ستمطر السماء!؟"

اقترب منه (عبد العليم) وقال:

- "يبدو أنه رجل مأفون.. فلنسر الآن طالما أننا قادرون على ذلك، لعل الله يسخِّر لنا ما ينقذنا"

وافقه (أحمد) الرأي، ثم نادى في القافلة لتنطلق، فقاطعه الشيخ بثقة قائلًا:

- "إذا تركتم هذا المكان ستهلكون، أما إذا انتظرتم هنا فغدًا سيأتي إليكم الماء"

تذكر (أحمد) عندما كان المسدس موجهًا لرأسه ثم انقلب الأمر لصالحه، ثم حدق في السماء وقال:

ـ "من قال إنه انتهى زمن المعجزات!؟"، فقرروا البقاء حتى الغد.

لم ينم الشيخ طوال الليل، بل ظل ممسكًا بالمقراب يراقب النجوم.

في اليوم التالي مرت قافلة عليهم، فبادلهم الشيخ الذهب مقابل الماء.

لو كانوا تحركوا ما التقوا أبدًا بهذه القافلة، لذلك كانوا شاكرين للشيخ إنقاذه لحياتهم.

في الليلة المحاقية، ومع اشتداد ظلمة الليل، تُولَد النجوم متلألئة وضَّاءة، لذلك أيقظ الشيخ (أحمد) من نومه وقال له:

ـ "اجلس معي قليلًا نتسامر"

ظل الرجل يحدق في النجوم، و(أحمد) بجواره يداعب النعاس عينيه، ثم أشار الشيخ إلى أحد النجوم وقال:

ـ "انظر إلى هذا النجم.. رغم أن ضوءه قوي وثابت إلا أنه وُلِد معيبًا، لذلك سيكون أقصر النجوم التي خلقها الله عمرًا"

ثم التفت إلى (أحمد) وقال:

ـ "ليس مقدرًا لك ومن معك أن تقابلوا صاحب (مكة) فيها، وإنما في مكان آخر. اتبعني وسأرشدك إليه فإنه سيأتي إليك ولن تذهب إليه"

صمت (أحمد) مطولًا يفكر ويحدق في النجوم، يتعجب كيف له أن يقضي مثل هذه المدة الطويلة في الصحراء دون أن يلاحظ بهاء النجوم وجمالها الخلاب. ثم قال: "لا أستطيع أن أجادلك بعدما رأيت منك، لذلك سنتبعك إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا"

** ** ** **

(٩)

مرت ثلاثة أشهر وأنا أزاول عملي الجديد الذي أراده لي (عثمان)، فقد كنت أعنى بإصلاح الأجهزة والآلات المحيطة بالقلب. عمل دقيق وحساس كما أنه يتطلب شخصًا أميناً موثوقًا فيه.

خلال هذه الأشهر الثلاثة وقعت أحداث كثيرة؛ فقد تمكن الإنسان الأخضر الذي كان بداخل القلب من مداواة نفسه والخروج أخيراً، وأطلق على نفسه اسم (تحوت). سألته مستغربًا: "وما معنى هذا الاسم؟؟"

فأجابني أنه (اسم إله الحكمة عند الفراعنة).

رغم زوال اللون الأخضر الذي كان يغطي جسده، إلا أن عينه اليمنى لا تزال مفقوءة، وآثار القطب الناتجة عن الجراحة تجعل من شكل جبهته منفراً.

علمت أن اللون الأخضر الذي كان يغطي جسده عبارة عن طريقة جديدة ابتكرها بنفسه ليتمكن من استمداد الطاقة من ضوء الشمس بعدما تمزقت أمعاءه وضمرت معدته، لذلك تم نقله إلى الطابق العلوي حتى يكون قريباَ من الشمس.

ظل يتطور يومًا بعد يوم، ويزداد علمه وتزداد قوته. كنت أستمتع بالاستماع إليه وإلى حكمه التي يلقيها على مسامع من يجالسه، وقد كان لا يجالسه إلا علية القوم، الذين يدفعون الكثير من الأموال للبقاء معه مدة ساعة فقط.

في أحد الأيام تعطل أحد الأجهزة فذهبت لإصلاحه، فوجدت (تحوت) يقف ممسكًا ببذرة لنبتة، ثم وضعها في أصيص به تراب وصب فوقها

قليلًا من الماء، ثم بسط كفه فوق الأصيص وبدأت يده ترتعد وعضلات وجهه تتقلص، وكأنه يستنهض البذرة لتقوم من سباتها في التراب إلى يده المبسوطة؛ فحدث أمر شاب له شعري! تشققت البذرة بقوة حتى أكاد أزعم أني سمعت صوت طقطقتها، لتخرج منها نبتة خضراء صغيرة تدافع الطين حتى شقت لنفسها طريقًا إلى الهواء والشمس، وظلت تنمو حتى أورقت وبرعمت وأزهرت ثم أثمرت!! فوقفت بجواره أحدق في النبتة النامية حتى لامستْ باطن كفه الذي لا يزال مبسوطًا، وقلت له:

ـ "أي سحر هذا بحق الله!؟"

ابتسم وقال:

ـ "إنه ليس سحراً بل علم.. علم تطور ومر بمراحل حتى وصل إلى هذه المرحلة المتقدمة"

قلت بعجب:

ـ "وهل يعطي العلم يدك القدرة على تسريع الزمن لتنمو نبتة في دقيقة ما تنموه في الظروف الطبيعية في عدة أشهر!!؟؟"

ابتسم وقال:

ـ "ما الزمن إلا وهم كبير يضيع البشر بين طياته، وسجن تُحتجز فيه عقولهم إلى أن تفنى أجسادهم وتوضع في التراب"، ثم أردف قائلًا: "ولكن هذا ليس تسريع للزمن، بل تسريع لنمو النبتة. هل سمعت يومًا عن تكنولوجيا النانو؟"

قلت له:

ـ "سمعت عنها ولكن ليس ما يكفي كما أرى!!"

قال موضِّحًا:
ـ "إنها جسيمات صغيرة جدًا يمكن التحكم بها لتعمل كفريق صغير ينفذ ما تأتيه من أوامر. لقد زرعت في جسدي المليارت من هذه الجسيمات، كما منحتها القدرة على التحرك خلال الأجسام والفراغ، لتخترق أي جسم أمامها وتعمل كبنّاء ماهر لتسرِع عمل نبتة لتنمو سريعًا، أو تعيد تشييد بناء متهدم في ثوان"
هززت رأسي غير مقتنع بما يقول، ولكنه قال:
ـ "صدقني إن الطوابق السبعة التي تحت الأرض تغص الآن بعلوم وتكنولوجيات لو اطلع عليها عالِم متفتح العقل منذ مائة عام لظن أنها ضرب من السحر أو الخيال"
قلت له:
ـ "إذا كنت قادرًا إلى هذا الحد، فلم لم تعالج عينك المفقوءة أو بطنك المبقورة!؟"
نظر إليّ شزرًا وبدا الغضب في عينيه، ولكنه كظم غيظه وقال بفخر:
ـ "أنا الوحيد على ظهر الأرض يمكنه القيام بهذا الأمر، ولكني الآن لا أستطيع مداواة نفسي أكثر من هذا الحد؛ لأني لو حاولت أكثر سيكون الأمر أشبه بجراح يجري عملية جراحية لنفسه، وهذا مستحيل"
دخل علينا (عثمان) متجهمًا، وقال لـ(تحوت):
ـ "تأهَّب لأنك ستلتقي رجلا مهمًا يرغب في التحدث إليك، ولكن احذر فإنه ماكر كثعلب وغادر كذئب"
سأله (تحوت):
ـ "ومن يكون هذا الرجل؟؟"

أجابه (عثمان):
- "إنه (حاييم يعلون)"
كانت مفاجأة لنا أن نسمع هذا الاسم، ولكن لم يكن هناك متسع للتفكير؛ فقد طلب مني (عثمان) أن أصحبه لمقابلته.
هبطت طائرة خاصة كبيرة مرسوم عليها شعار النورانية (هرم ذهبي في قمته عين تشع ضوءاَ وهَّاجًا)، نزل منها رجل عجوز دميم يتكئ على عصا مقبضها رأس أفعى، يتبعه رجلان شديدا البنيان، وفتاة حسناء تسير بجواره تحدثه باللغة الايطالية.
وقف (عثمان) و(عادل) ابنه، الذي كان متجهمًا غاضبًا، ورجلين آخرين، وأنا كنت خلفهم. لم يصافح أحدهما الآخر، ووقفا مواجهين بعضهما بينهما مسافة مترين تقريبًا. سعل (حاييم) بشدة وتفصد العرق عن جبينه ثم قال:
- "أخيراَ التقينا يا سيد (عثمان)! لقد راقبت مدينتك من الجو.. إنها جميلة وواعدة"
قال له (عثمان):
- "لقد فاجأني اتصالك ورغبتك في رؤية قلب الساعة"
رد (حاييم) بإجابة ساخرة:
- "إنني كما ترى رجل عجوز ينتظر الموت، ولكني فضولي وقد أثارني الحديث الكثير الذي سمعته عن ساعتك الذهبية الجميلة"
- "ولكن.. هل كنت تتوقع أن أسمح لك بالقدوم!؟؟"
ابتسم (حاييم) قائلًا:
- "إنك رجل ذو مبادئ، وليس أسهل من ذوي المبادئ للتنبؤ بأفعالهم"

حاول (عثمان) أن يرد له الصاع، فقال:

ـ "سمعت أن المسيحيين يضعونكم في موقف حرج؛ فجموعهم تتزايد وجيوشهم تقوى"

ـ "بالفعل هم كذلك.. ولكنهم لا يملكون عتادًا كعتادنا أو إيمانا كإيماننا"

استفزت هذه الكلمات (عثمان) فقال له:

ـ "سأتركك الآن لابني (عادل) ليرشدك في المكان، واعذرني فلدي مشاغل كثيرة"

أجابه (حاييم):

ـ "لا بأس أنا مقدِّر لمشاغلك"

دخل (حاييم) على (تحوت)، الذي كان جالسًا على كرسي وثير تتسلط على ظهره أشعة الشمس الغاربة، فأعطته ظلًا طويلًا وغموضًا في ملامحه، وجلس (حاييم) على كرسي مقابل. انصرف الجميع ولكني بقيت مدعيًا إصلاح جهاز ما؛ فقد كنت في شوق للاستماع للحديث الذي يدور بينهما. وبالطبع كان (عثمان) و(عادل) يتابعان كل ما يحدث عبر شاشات المراقبة.

بدأ (حاييم) التحدث بصوته الضعيف:

ـ "لقد سمعت عنك الكثير، فدفعني الفضول لمقابلتك"

ـ "لا أظن أن الفضول وحده هو الذي دفعك للقدوم.. لابد من وجود سبب آخر لهذه الزيارة"

ابتسم (حاييم):

ـ "أعلم أن لك العديد من القدرات الغريبة، ولكني لم أكن أعلم أنك قارئ أفكار أيضًا"

ـ "الأمر لا يحتاج إلى قارئ أفكار.. إنه واضح"

تنهد (حاييم):

ـ "سمعت أنك اخترت لنفسك اسم (تحوت).. أظن أنه اسم إله الحكمة عند قدماء المصريين. إذن.. لماذا اخترت هذا الاسم؟؟ هل اخترته لأنك تظن نفسك أنك إله أم حكيم؟؟"

استغرق (تحوت) بعض الوقت قبل أن يجيب -وهذا ليس من عادته- وكأنه يحاول أن ينتقي كلماته بعناية. قلت في نفسي حقًا إنه رجل ماكر كثعلب.

أجابه (تحوت):

ـ "ربما أملك بعضًا من الصفتين"

هز (حاييم) رأسه في سعادة راضيًا عن هذه الاجابة:

ـ "ألا تشعر بالضجر لوجودك في هذه الغرفة الضيقة في المبنى شديد الحراسة وكأنك سجين!؟؟ أشعر وكأنك عبد لـ(عثمان) أو قطعة أثاث يملكها، يطلع عليها من أحب ويمنعها عمن شاء"

ـ "هاهاها.. إنه أسلوب جيد ذلك الذي تتبعه في حديثك يا سيد (حاييم)، ولكنك لا تظن أن مثل هذه الكلمات الذكية ستجعل قلبي يتغير وولائي يتبدل في طرفة عين"

ابتسم (حاييم):

ـ "ليس في طرفة عين.. هذا هو سحر الكلمات.. إنها كائنات تحيا في عقولنا، تنمو وتتكاثر دون أن نشعر بها، حتى إذا جاء موقف أو حدث ليحفزها، فتعمل في العقل عمل الشهوة في البدن"

ـ "ليس كل الرجال يسهل خداعهم؛ فبالنسبة لي أنت تبدو كمن يستجدي.. أنك لا تستطيع أن تغوي شخصًا إلى أمر إذا صرحت إليه بما تريد بلا مراوغة"

ـ "دعني أخبرك نتاج معرفتي وخبرتي يا سيد (تحوت).. إن أسهل طريق لخداع رجل وجذبه إلى أمر هو أن تخبره بما تريد تصريحًا.. الأمر أشبه بغواية المرأة للرجل؛ فانها تعرض مفاتنها عليه مدعيةً أنها لا تتعمد، والرجل يعرف أنها تبغي غوايته ولكنه يظن نفسه أذكى من جسدها الطري وملامحها العذبة، فيدعي أنه سيجاريها ويداعبها ثم يلقيها بعد أن ينال مبتغاه منها.. ولكنه يا صديقي مع مرور الوقت يجد نفسه أسير ما استهزأ به.. كذا الكلمات؛ تستهزئ بها في البداية، ولكنها ما تلبث أن تغزو عقلك، تؤرق نومك، تلح إلحاحًا حتى تستسلم لما تفرضه عليك.. ولكن عليك اختيار الكلمات الصحيحة التي تصبها في رأس من تستهدفه"

أشار (تحوت) إلى رأسه:

ـ "أتظن أن مثل هذه الرأس ستغويها هذه الكلمات البسيطة التي ألقيتها على مسامعي!؟"

شعرت وأنا أسمع هذا الحوار أنني في حرب مستترة من الكلمات، حتى أني تساءلت في قرارة نفسي إن كنت أعي ما يقولونه حقًا أم له معنى يفوق إدراكي. ابتسم (حاييم) وقال:

ـ "ليست هذه الكلمات التي ستغويك إليّ، بل ما سأقوله"
جلس على طرف الكرسي واتكأ على قدميه مظهراً الاهتمام:
ـ "اسمع جيدًا ما سأقول.. إنك شخص قوي ذو علم غزير وإمكانات غير محدودة، وأنا رجل يملك طائفة يقترب تعدادها الآن من نصف الأرض.. أنت تملك شخصية القائد وأنا أملك الجيش.. يمكنك أن تحكم العالم وتصير ملكًا على كل هذه الأرض، أبيضها وأحمرها، أسودها وأصفرها"
ـ "أنت تريدني لأكون جنديًا من جنودك، يصنع مجدًا تنسبه لنفسك وينصر طائفتك. بئس المعادلة تلك!"
ـ "انظر إليّ جيدًا.. لقد انحنى ظهري وتساقطت أسناني. أنا لا أبغي مُلكًا أو مجدًا، ولكني أريد لعقيدتي أن تنتشر وأن تقوى شوكة طائفتي. المسيحيون في الغرب يبنون جيشًا قويًا.. إنهم يجندون حتى الأطفال والنساء لهذه الحرب، وفي الجنوب ملك في (مكة) شديد البأس قوي التأثير، أخشى أن يولي وجهه شطر الشمال فنهلك. أريدك لتكون ملكًا.. لا ليس ملكًا.. بل إله"
لمعت عين (تحوت) الوحيدة، وردد الكلمة وكأنه يتأمل وقعها: "إله!"
ـ "نعم إله.. ولم لا!؟ إنك الأقوى على الأرض والأكثر علمًا.. من غيرك يستحق مثل هذه المكانة!؟"
ـ "أنت تخبرني بهذا!!؟ أنت!! وأنت زعيم طائفة دينية!!؟ أين إيمانك بما تعتقد!!؟ أم أنها خدعة من خدعك!؟"
ـ "ليست خدعة.. أنت رجل موغل في العلم. أتظن حقًا أن مثل هذا الكون الفوضوي نشأ عن خالق!؟؟ رغم انتظام حركته إلا أنه قمة

الفوضى والعشوائية.. لابد أنك أدركت أن كل شيء يمكن تحقيقه بالعلم حتى الخلود والألوهية.. الإله الوحيد الباقي على مر الزمان هو العلم.. وما هذه الطائفة التي أنشأتها إلا لفرض السيطرة وبسط النفوذ، وأنا مستعد لبذل كل شيء حتى لا ينهار حلمي الذي بنيته لسنوات طوال"

اخترق (عثمان) الغرفة كقطار خرج عن سكته، وقال بصوت حانق:

ـ "لقد انتهت المقابلة! يا لك من شيطان قذر تتلاعب بأدمغة الناس وعقولهم!!"

ابتسم (حاييم) وقال:

ـ "لا تنس أنني أعبد الشيطان.. لقد مدحتني للتو!"

انفجر (عثمان) غاضبًا: "اخرج! اخرج!"

*****

لم يبق شيء على حاله منذ ذلك اليوم؛ فقد شب خلاف حاد بين (عثمان) وابنه، الذي رأى أن والده يعيش مثالية مفرطة ليسمح لعدوه اللدود لكي يطلع على أقوى أسلحته، وأصبح الخلاف بينهما يتزايد حتى على سفاسف الأمور وأدقها.

أما (تحوت)، فقد كان شاحب الوجه كثير الإطراق، وكأنه يوازن ما قاله (حاييم) بألف معادلة.

خشيت أن يكون قد وقع في شرك هذا العجوز الخبيث، فقلت له وهو يحدق في النافذة مطرقًا:

ـ "أنت أذكى من أن تقع في شرك مثل هذا الرجل الماكر"

ـ "وأي مكر في ما قاله!!؟ لقد كان الرجل واضحًا وصريحًا.. إنه يريد شيئًا مني ويرغب بشيء في المقابل.. معادلة عادلة"
ـ "أترى ما يحدث!!؟ إن ألاعيبه أسرتك.. لقد أغواك بالأسلوب الذي شرحه لك.. وما الصراحة إلا غطاء يشغلك به.. لقد أخبرك بجزء من الحقيقة واحتفظ بالباقي لنفسه.. لقد أغواك بالجزرة ويخفي العصا خلف ظهره.. إذا تحالفت معه ستجد نفسك في شباكه ولن تفلت أبدًا"
ـ "قد يحدث هذا مع أي أحد ولكنه لا يحدث معي.. ليس أنا.. إنه يعرف أنه لا يمكنه العبث مع رجل أكثر ذكاءَ وقوةً منه"
ـ "هذه نفس الكلمات التي يرددها كل رجل قبل أن يقدم على حماقة تهلكه.. إنه الغرور الذي يعمي البصر والبصيرة.. أنت لست إلهًا ولن تكون يوما إلهًا.. واجه الواقع!"
ـ "الواقع هو الوهم الذي نحصر أنفسنا داخله.. كيف لك أن تبدع إن كان واقعك هو كل حياتك!؟ لابد من المخيلة.. لابد من المغامرة، المجازفة لتصنع واقعًا جديدًا"
انتهى حديثنا، وبدأ القلق. (عثمان) ينظر إلى ابنه بعين زائغة؛ فهو يشعر أن ابنه سيتمرد عليه قريبًا، والابن يشعر أن أباه لم يعد جديرًا بالمسؤولية التي على عاتقه، و(تحوت) ينظر إليهما كسجّانين يعتقلانه.
بدأ في صناعة صندوق من سبائك التيتانيوم، مخلوط بمزيج من الفانديوم والكروم ومعادن أخرى، وهذه سبائك تعتبر غاية في القوة، لم أعلم لماذا يبني (تحوت) مثل هذا الصندوق.
كنت أسير في أروقة المبنى، فأجد أن روحه تنطفئ وملامحه تبهت نتيجة لروح الشك والقلق التي كانت تنتاب ساكنيه. حتى العمال

والموظفين تحزّبوا؛ بعضهم يدعم الابن والآخر يؤازر الأب. حتى جاء اليوم المشؤوم الذي تبدلت فيه حياتي للأبد، وأدركت أني سأخوض غمار معركة شرسة لا يعلم نهايتها إلا الله.

كان يومًا عاصفًا.. الريح تعوي، والرمال ترجم النوافذ. تعطلت الملاحة ولم تأت طائرات. العمال كسالى والشمس تختبئ خلف الغيوم. دخل (عادل) المبنى يتبعه عشرات الجنود المدججين بالسلاح، يسيرون في جدية وتأهب، فانتبه لهم كل عمال المبنى ووقفوا يتابعون ما يحدث. صعد (عادل) إلى مكتب والده وأخبره أنه غير مرحّب به في هذا المكان وإدارته ستكون بيد (عادل)، لم يقاوم الأب أو يجادل، وإنما استسلم لقرار ولده، وحرص (عادل) أن يقول بصوت مسموع للجندي الذي يصطحب والده: "رافق والدي إلى منزله وتعامل معه برفق، ولبِّ كل ما يطلب غير أنه يخرج من المنزل"، ثم أعلن للحاضرين أن المبنى تحت قيادة جديدة، وأنه سيجري بعض التعديلات في المكان. بالطبع التعديلات كانت تعني مزيدًا من السيطرة على (تحوت)، الذي بدا في الأيام الأخيرة متمردًا.

توجهت ل(تحوت) لأرى رد فعله، فقال:

ـ "كنت أنتظر هذا اليوم.. إنه ينوي قتلي ولكني لن أسمح له"

ثم التفت إليّ وقال:

"لقد كنتَ صديقًا جيدًا لذلك سأمنحك فرصة للهرب"

ـ "مم!؟؟"

ـ "لقد لغّمت المكان بعشرات القنابل التي ستنفجر بعد خمس دقائق؛ فأنا أسيطر على كل الآلات والمعدات"

ـ "ماذا!؟ لا أصدق!! وماذا عنك؟؟"
ـ "سأدخل هذا الصندوق وأغلقه.. سيحميني من الانفجار. كل شيء محسوب"
ـ "ولكن ماذا عن الأبرياء الذين لا ذنب لهم!؟؟"
ـ "لابد من التضحيات لخدمة هدف أسمى.. إذا لم تنصرف الآن ستهلك.. اهرب! اهرب!"
ركضت في أروقة المبنى كالملتاث، وأنا أردد جملة واحدة بأعلى صوتي.
"المبنى سينفجر!! اهربوا! انجوا بحياتكم!!"
نظر بعضهم إليّ بتعجب، غير مدركين لسبب خوفي وثورتي، دون أن يأبهوا كثيراً.
اندفعتُ خارج المبنى ألهث، وانحرفت عن الطريق الجرانيتي دون أن ألاحظ، فغاصت قدمي في الرمال، وأخذت أجاهد للوصول إلى أعلى التل، ولكني فجأة سمعت صوتًا أصابني بالصمم وكأني صُفعت على أذني، فأدرت رأسي لأرى موجة ضخمة من الرمال والصخور تندفع نحوي، فحملتني عاليًا ثم ألقتني على الأرض بلا رحمة ففقدت الوعي.
أفقتُ فوجدتني مغمورًا بالرمال أكاد أختنق، فنهضت أترنح وقد تلطخ وجهي بالرمال المختلطة بالدم. فنظرت خلفي لأرى المبنى قد أصبح أثرًا بعد عين؛ فقد ابتلعت الطوابق السفلية ما كان فوقها وكأنها أفعى طويلة ابتلعت فأرًا صغيرًا. وامتلأ الحطام بأصوات البكاء والعويل وتأوه الجرحى.
فوق الركام، لمع صندوق فضي اللون أصيب ببعض الخدوش والانبعاجات ولكنه في المجمل لم يتضرر كثيراً. انفتح الصندوق ببطء

ليخرج منه (تحوت) دون أن يصاب بقدر ضئيل من الأذى. رأيته يحدق في الأطلال والجرحى مبتسمًا وكأنه يفخر بما صنع. حاولتُ أن أتكلم ولكن لساني كان معقودًا، لا أدري هل من صدمة الصخور أم من صدمتي مما حدث. بدأت أحجل نحوه وأكاد أنفجر غضبًا. كنت في كل خطوة أتأمل كيف سأقضي عليه. سأنتزع عروق عنقه بأسناني! لالا.. سأعذبه أولًا! سأقطعه إربًا إربًا. ولكني ترنحت قليلًا في الهواء ثم سقطتُ مجددًا واستسلمت للرمال تلهب ظهري. أحاول البكاء لكني لا أستطيع.

كانت الريح لا تزال غاضبة، وترسل صيحات الألم مصحوبة برذاذ الرمال الملتهب، عندما اقتربت مروحية كبيرة كانت تستخدم سابقًا كناقلة للجند. لقد جازفت هذه المروحية بالطيران في هذا الجو، إذن فقد جاءت لأمر جلل. نزل (تحوت) ببطء عن تل الركام حتى وصل إليّ وأنا مستلق على الأرض أحدق في السماء. حجبتْ رأسه عن عيني ما تبقى من ضوء الشمس، والذي لم تحجبه الرمال المتطايرة.

قال:

- "إذن لقد نجوتَ! أعلم أنك غاضب مني الآن، ولكنك سترى في المستقبل أن هذا الحدث الصادم سيولد من رحمه خير كثير للبشرية"

ألقيت في وجهه ابتسامة مقتضبة ساخرة مستهزئة.

هبطت الطائرة قريبًا من الحطام، ونزل منها عشرات الجنود المدججين بالسلاح يتبعهم (حاييم) ببطء. سار في الرمال مغبرًا ملابسه الأنيقة ليرى المبنى المحطم. اقترب منه (تحوت) ووقفا معًا يشاهدان منظر الدمار.

عندما رأيتهما معًا انهمرت الدموع من عيني، وشعرت أني اختنق بدموعي. لقد انتصر (حاييم) مجددًا! لقد انتصر الباطل على أهل الحق والصواب! لماذا الأخيار دائما ضعفاء!!؟ لماذا هم الذين دائمًا يقدمون التضحيات ويموتون!!؟

صعدا معًا إلى الطائرة يحيط بهم الجنود، وطارت مبتعدة.

وصلتْ سيارة دفع رباعي ظهرها مكشوف تطوي الصحراء، فجلستُ لأرى من هذا القادم. لقد كان السيد (عثمان)! بمجرد أن رأيته أجهشت في البكاء. قلتُ إنه (تحوت) هو الذي فعل هذا، هو و(حاييم).

لم ينزل الرجل عن سيارته، وقال:

"لا وقت الآن للبكاء.. قم فأنا أحتاجك!"

لا أعرف من أين جاءتني القوة لأقفز في سيارته، واستدار بسيارته وسط الرمال بقيادة شاب جريء في العشرينيات. نظرت إليه مبهورًا وهو يقود بمهارة. لقد كان مثالًا للجرأة والشهامة والإقدام. قال بصوت حانق:

ـ "يجب ألا ندع (حاييم) يستولي عليه.. ستكون هذه ضربة في مقتل لأبناء أمتنا.. سيستخدمه (حاييم) لإبادتنا". ثم هربت دمعة من عينه وقال "سأكون أنا من صنع السلاح الذي تباد به أمتي"

لقد كان نبيل المقصد حتى في هذا الموقف. كنت أظنه يحاول الانتقام لولده المقتول أو لماله المهدور.

قطع عليّ أفكاري عندما قال:

ـ "الطائرة لم تبتعد كثيراً.. يمكننا إصابتها.. أحضِر البازوكا من الخلف"

أمسكت بهذا السلاح الضخم الغريب وقلت له: "لا أعرف استخدامه!"
فقال:ـ "إنه سهل وبسيط.. صوِّب وأطلق!"
ـ "كيف أصوِّب وأنت تتقافز بالسيارة كالأرنب!؟"
ـ "لا تُضِع الوقت وأطلِق!"
صوّبت البازوكا ويداي ترتعدان.
فقال:
ـ "ماذا تنتظر!!؟ أطلِق!"
قلت له:
ـ "إنه ليس واضحًا في مرماي"
توقف فجأة حتى كدت أسقط عن السيارة، وأمسك بالبازوكا وأطلق دون تفكير. انطلقت القذيفة وعيوننا تراقبها في قلق. أصابت المروحية إصابة طفيفة في ذيلها، لم تكن كافية لاسقاطها ولكن كانت كافية لتضطرهم للهبوط.
ألقى (عثمان) البازوكا في حجري، وانطلق مجددًا وقال: "لا تتردد هذه المرة!"
انطلقنا نحو الطائرة التي قد اشتعلت مؤخرتها وبدأت تطلق دخانًا أسود. بدا أن ربان الطائرة الماهر استطاع الهبوط بها بنجاح.
قال (عثمان):
ـ "استعد؛ فالطائرة سقطت خلف هذا التل، لقِّم السلاح بقذيفة أخرى وأطلِق حتى دون أن تنظر؛ لأن هذه فرصتنا الوحيدة.. من يُطلِق أولًا هو المنتصر"

تأهبت وعقدت جبيني وقلت في نفسي: "سأصيبهم بلا شك.. سأطلق دون تفكير.. ستكون إصابة مباشرة"

لم أكد أنتهي من جملتي، حتى سمعت دوي طلقة يتردد في الأفق، فتحسست نفسي.. "الحمد لله أنا بخير!".. ولكني شعرت أن السيارة تنحرف بقوة عن مسارها. التفتُّ إلى (عثمان)، فوجدت أن الطلقة قد اخترقت جبهته ونزل منها خيط ضعيف من الدم. اقتربت منه لنجدته ولكن السيارة انقلبت على جانبها وألقتنا بعيدا منها.

نهضت وأنا أنتحب، وسحبت (عثمان) من بين الرمال ووضعت رأسه في حجري. اختلطت دموعي بدمائه المنهمرة من جبهته. كان جسده ينتفض ويرتعد كأرنب مذبوح، فاحتضنته بقوة لعلي أوقف هذه الرجفة ولكني لم أستطع.

أحاطني خمسة جنود مصوبين نحوي بنادقهم. لم أبالِ وتمنيت أن يطلقوا على رأسي رصاصة مثل (عثمان) لأتخلص من هذا الجحيم. ولكن (تحوت) استوقفهم، وقال:

- "لا تطلقوا! إنه صديق ولكنه لم يفهم غايتي بعد.. عندما يعلم سينضم إلينا بدلًا من قتالنا"

وضع الجنود غمامة على عيني، وكان آخر ما رأيت.. (حاييم).. جثا على ركبتيه بجانب جثة (عثمان) يخاطبها. لا أدري ما قال ولكني كنتُ واثقًا أنه يتلذذ بهذه اللحظة المجيدة بالنسبة له.

** ** ** **

(١٠)

صحراء الأردن قاحلة، تخلو من كل أنواع الحياة إلا الأفاعي والعقارب، والمسير فيها منهك، خاصةً إن كنت لا تدري أين وجهتك.

سارت القافلة ثمانية أيام إلى غير الوجهة التي كانت تطلبها في البداية، يتبعون رجلًا غريب الأطوار.. لا يتعب، لا ينام، ولا يمل من التحديق في النجوم.

بدأت الشكوك تتزايد نحو قرار (أحمد) في اتباع هذا الرجل، وبدا التذمر واضحًا في وجوه أهل القافلة، لذلك كان لابد من تدخل (أحمد).

فانطلق نحو (عبد الله) وقال:

ـ "لقد اتبعناك لأنك أظهرتَ علامات حكمة ودلائل معرفة لا يملكها إلا أولياء الله الصالحين، ولكنك علي الأقل يمكنك أن تخبرنا بالمكان الذي نتوجه إليه"

التفت إليه (عبد الله) وقال:

ـ "خُلق الإنسان عجولا.."

ولم يزد علي هذا وأكمل طريقه، فتبعه (أحمد) مجددًا:

ـ "إن كنت تعلم طبيعة البشر وأنهم متعجلون، فقد أتعجل وأتخذ قرارًا كلانا سيندم عليه"

فلم يجبه الرجل، فنزل (أحمد) عن فرسه وأمسك فرس (عبد الله) وقال:

ـ "انزل عن جوادك.. الآن!"

رفع الرجل يده ببطء، وأشار إلي مكان بعيد وقال:

- "لقد وصلنا"

استدار (أحمد) مسرعًا فلم ير شيئًا. وقال:

- "لا يوجد شيء سوي الصحراء وهذا الجبل"

ابتسم (عبد الله) قائلًا:

- "نعم.. الجبل هو وجهتنا"

ترك (أحمد) لجام الفرس وتعجب قائلًا:

- "ولكنه جبل صخري صلد، لم يتفجر منه ماء أو ينبت فيه زرع، فما حاجتنا للذهاب إليه!!؟؟"

نظر إليه (عبد الله) من فوق فرسه وقال:

- "اصبر ولا تتعجل وسترى بنفسك"

وصلت القافلة إلي الجبل، وساروا في شق ضيق يفصل بين جانبيه. قال (عبد الله) وهو يمرر يده علي الصخور الملساء التي قد صقلتها الريح المحملة بالرمال:

- "لقد كان هذا الشق حيدًا مرجانيًا مغمورًا بالمياه وتسكنه آلاف الكائنات منذ ملايين السنين، ولكنه أصبح الآن قفرًا.. ولكنه يومًا ما سيعود زاخرًا بالحياة"

لم يفهم أي أحد ما يقول، ولكنهم اعتادوا منه ذلك.

أشار (عبد الله) نحو هضبة مرتفعة بجوار الجبل وقال:

- "سنخيم هنا إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا"

انتفض (أحمد) في غضب، وقال:

- "ما هو هذا الأمر؟؟"

نظر إليه (عبد الله) قليلًا، ثم قال له:

ـ "تسلق معي هذا الجبل"

استغرق صعودهما ثلاث ساعات، وقد جرحت أيديهما من الصخور المدببة والأحجار المصقولة.

على قمة الجبل حدَّق (أحمد) في الشمس الغاربة التي تغرق في بحر الصحراء العظيم، وقد استحال لون الرمال إلى الأحمر الباهت. ثبّت الشيخ مقرابه فوق حجر صغير، وأخذ يحركه فوقه وكأنه يبحث عن شيء في الصحراء.

ثم التفت إلى (أحمد) وقال:

ـ "تعال وانظر"

نظر (أحمد) في المقراب، ولكنه لم ير شيئًا، فقط الرمال المتكومة فوق بعضها التي تبدأ من الجبل وليس لها منتهى.

التفت إلى الشيخ وقال:

ـ "لا أر شيئًا"

قال له الشيخ:

ـ "بعد عدة أيام سيلتقي فريقان على هذه الرمال؛ فقد أعد ملوك سيناء وفلسطين والأردن جيشًا عظيمًا لمحاربة صاحب (مكة)، وقد علم صاحب (مكة) بهذا. وقد تحرك الجيشان منذ عدة أيام، وسيكون لقاؤهما هنا، أمام هذا الجبل وفوق هذه الرمال، لذلك سيأتي صاحب (مكة) إليك وأنت لست بحاجة للذهاب إليه".

وقف (أحمد) مبهوتًا لا يعرف ما يقول. جلس وأسند ظهره إلى صخرة كبيرة وقال:

- "سيقاتل المسلمون بعضهم بعضًا، ويسفكون دماء بعضهم!! ألا يكفيهم ما أصابهم من اليهود في (فلسطين) أو من النصارى على مشارف قسطنطينية أو من النورانيين في معارك عديدة!!؟"

جلس (عبد الله) بجواره، وربت على كتفه وقال:

- "إنه قضاء الله.. ولكن لا تقلق.. لن تسير الأمور كما تتخيلها أنت، بل إن الله قد رسم طريقًا آخر تؤول إليه الأمور"

نظر إليه (أحمد) بعينيه الغارقتين بالدمع وقال:

- "أي طريق؟؟"

ربت الشيخ على كتفه مجددًا وقال:

- "هذا يا بني لابد أن تراه بنفسك؛ لأنني لو وصفته لك فلن تصدقني"

** ** ** **

(١١)

بقيتُ معصوب العينين لمدة ساعتين تقريبًا، بعدها سمعت صوت جهوري لطائرة تحلِّق فوق رؤوسنا، فعلمت أن طائرة أخرى جاءت لتقلنا.

استنهضني أحد الجنود ودفعني من ظهري حتى ركبت في الطائرة، أجلسني على كرسي وربط حزامًا حول وسطي. كانت أول مرة أركب طائرة. شعرت بالرعب يتملكني، وكدت أصاب بالصمم عندما بدأتْ في التحليق، ولكنها عندما استقرت في الجو شعرت بالطمأنينة والراحة.

لا أعرف كم مر من الوقت؛ فقد غفوتُ من شدة التعب. حطت الطائرة، ثم اقترب مني (تحوت) وقال:

ـ "سأتركك الآن يا صديقي، ولكن لا تقلق سأحرص على حضورك عند تتويجي ملكًا وإلها على الأرض. وستدرك أني كنت محقًّا"

قال له (حاييم):

ـ "علينا أن نرحل الآن.. واحرصوا على إبقاء صديق (تحوت) في قصري آمنا إلى أن يحين الوقت"

قلت لـ(حاييم):

ـ "أتظن أن (تحوت) سيكون ذا نفع لك!!؟ إنه محكوم بضوء الشمس؛ في الضوء يصنع المعجزات، وفي الظلمة خائر كأسد عجوز جريح يزأر ولا فائدة ترجى منه.. وستكون خسارتك على يديه"

قال (تحوت) بغبطة:

ـ "لا تقلق يا صديقي لقد أوجدتُ حلًا لمثل هذه المشكلة"

انصرفا وتركاني وحيدًا في الطائرة مع بعض الحراس.

تكلم بجانبي الحارسان بالانجليزية، وقد كنت أفهم بعضًا منها، ففهمت منهما أنهما لن يأخذاني إلى قصر وإنما إلى سجن بعيد، فـ(حاييم) لا يريد أحدًا غيره يكون قريبًا من (تحوت) حتى تسهل السيطرة عليه، وما قول (حاييم) بذهابي إلى القصر إلا خديعة لـ(تحوت) حتى لا يغضب.

طارت الطائرة ساعات طوال لم أتبين عددها. تفاجأت عند نزولي برياح باردة تلطم وجهي حتى كاد أن يتمزق من شدة الصقيع. وعندما نزلتُ من الطائرة انزلقتُ على الأرض الجليدية. علمت حينها أن (حاييم) قد نفاني إلى مكان لا يمكن لـ(تحوت) أن يجدني فيه، ولكن لماذا أبعدني ولم يقتلني!!؟ لعله أبقاني حيًا لأنه سيحتاجني بعد، وهو يعلم أني صوت الضمير الوحيد الذي قد يستمع إليه (تحوت).

لم أفهم شيئًا مما يقال حولي؛ فقد كانت لغة غريبة، لعلها كانت الروسية، لا أدري! شعرت أني أسير في سرداب ضيق تحت الأرض. سمعت هسهسات وهمهمات تدور من حولي، وأصوات أبواب معدنية تصطك، فعلمت أنني في سجن تحت الأرض. وأمام إحدى الزنازين نزع الجندي الغمامة عن عيني، فوجدتُ أني أقف في سرداب قذر يبدو وكأنه منحوت في باطن الأرض، مليء بعشرات الزنازين. فتح الحارس الباب ودفعني فسقطتُ على الأرض وأغلق الباب.

كانت الزنزانة عبارة عن غرفة ضيقة مصنوعة من الحجارة القاسية، وفي أحد حوائطها نافذة ضيقة يتوسطها ثلاثة قضبان معدنية يدخل الضوء منها ضعيفًا خافتًا. وجدت معي أربعة رجال غيري، كانت ملامحهم غير عربية؛ فأحدهم عينه زرقاء ولحيته بنية، وآخر شعره

أصفر، كما حاولت أن أكلمهم بالعربية ولكنهم لم يفهموني، فحاولت بالإنجليزية ولكني لم أفلح. ثم أشار أحدهم إلى رجل ضخم الجثة مستلقٍ على جنبه الأيسر ووجهه قبالة الحائط، فخشيت أن أوقظه، ولكنهم شجعوني مبتسمين، فهززته بلطف، فقام من نومه فزعًا بجسده الضخم كثور، حتى أنه دفعني فسقطتُ على الأرض دون أن يشعر. ثم أخذ يفرك وجهه وتثاءب واضعًا يده على فمه، ثم تحدث إليّ بالروسية طويلًا. الشيء الوحيد الذي طمأنني هو أنه كان مبتسمًا، كما أنه كانت له ملامح عربية. شعره أسود شديد السواد، ولحيته سوداء بها بعض الخصل البيضاء التي قد أعطته هيبة فوق هيبة جسده الضخم.

بادلته الابتسام وقلت له: "ليتني أفهم ما تقول"

فلمعت عيناه وازدادت ابتسامته، ثم قال:

ـ "أتتكلم العربية!؟"

غمرتني السعادة في هذه اللحظة عندما سمعت كلماته، وقلت له:

ـ "نعم"

ابتسم وقال:

ـ "من لهجتك تبدو مصريًا"

اتسعت ابتسامتي وقلت له:

ـ "نعم.. من أين أنت؟؟"

أخبرني أنه من العراق، وأنه سافر مع خمسة من رفاقه إلى الشيشان للجهاد مع إخوانه المسلمين هناك ضد النورانيين المجرمين الذين استولوا على روسيا وكل ما جاورها، وانتهكوا الأعراض هناك وقتلوا

أهل الانجيل والقرآن، وأخبرني أن هذا السجن الذي أقبع فيه يقع على حدود الشيشان.

وبدأتُ أخبره عن مصر والجيزة وساعة الأمنيات، حتى جاء ذكر (حاييم) والسيد (عثمان)، فأجهشت في البكاء، فربت على كتفي وواساني. لقد كان نعم الأخ والصديق، وقلق بشدة عندما علم عن (تحوت) وقوته، ولكن ما سلاه وسرّ قلبه هو معرفة خبر أمير (مكة)، الذي نهض من السبات العميق واستنهض المسلمين وبث فيهم العقيدة والحمية، فشعر ببعض الأمل في هذا المكان الضيق القذر البارد.

قضيت في هذا السجن شهراً كاملًا، انقضى في تلاوة ما أحفظ من القرآن وساعدني صديقي (عديّ) على حفظ المزيد، ومارست الرياضة وتعلمت القليل عن فنون القتال. كان السجن مليئًا بأصحاب الملل والنحل المختلفة، إلا أنهم كانوا متعاطفين مع بعضهم البعض، يجمع بينهم بغضهم الشديد للنورانيين. كما أني تعلمت بعض الجمل والعبارات الروسية.

بعد مرور شهر حدث أمر غيّر حياتي وقلب موازين عقلي. لقد وصلت القطة السوداء!

كان الأمر في صبيحة يوم عاصف والثلج ينهمر علينا من النافذة. سمعتُ ضجة كبيرة من المساجين، يطرقون الأبواب بأطباق الطعام المعدنية ويهتفون في صوت واحد بكلمات لم أفهم معناها، فنهض (عديّ) مسرعًا ينظر من نافذة الباب الضيقة، ثم بدأ بالهتاف مثلهم. فقلت له بفضول:

ـ "ماذا يحدث!؟؟"

قال:

ـ "يبدو أنهم قبضوا على القطة السوداء!"

فازداد فضولي:

ـ "ومن هي هذه القطة السوداء التي يهتف لها الجميع؟؟"

لم يجبني، ولكنه أشار إليّ لأقترب، فنظرتُ من النافذة، فإذا بفتاة طولها لا بأس به كامرأة، ليست طويلة أو قصيرة، تسير بثقة، ويحيط بها الجنود مضطربين. ترتدي ملابس جلدية سوداء تغطي جسدها من رأسها وحتى أخمص قدميها، وتلبس فوقها عباءة سوداء مشقوقة الجانبين ابتداءَ من خصرها نزولًا حتى تسهل حركتها، وترتدي قناعًا جلديًا يخفي وجهها ولا يظهر منها إلا عينيها. عينيها!! وما أدراك ما عينيها!! بينما كانت تسير أمام زنزانتي التفتت نحوي، فرأيت عينيها الزرقاوين زرقة البحر. تجمّع فيها جرأة البحر، وقوته، ورومانسية شاطئه، وجماله، وبريق لؤلؤه ولمعانه. لقد أحببت عينيها بل عشقتهما من نظرة واحدة! كانت تتشح بوشاح أسود يحيط بعنقها وينسدل مغطيًا صدرها وجزء من ظهرها، ليحميها من الصقيع ويخفي أنوثتها الوهاجة رغم الحرص على الاحتشام. ظللت أراقب مشيتها الرشيقة وكأنها تلامس الأرض بأطراف أصابعها، حتى دفعها الجنود في زنزانة خاوية. لحسن حظي كانت هذه الزنزانة بجوار زنزانتي، فوضعتُ أذني على الحائط لعلي أسمع صوتها تبكي أو تنتحب، ولكني لم أجن سوى الصمت.

تأمل (عديّ) حالي وأنا أدور في زنزانتي كالعصفور في القفص بعدما رأيتها، فدفعني بجمع يده في كتفي مازحًا فسقطت على الأرض، وقال:
ـ "ماذا!!؟ هل وقعت في حبها!!؟ أنت لست وحدك؛ فكل الموجودين هنا عشقوها من طلتها فقط. ولكن لا تعقد الآمال يا صديقي فهذه قطة برية جامحة لا يمكن أن تُروَّض. سأخبرك بقصة عنها.... كنتُ أقاتل تحت قيادة قائد شيشاني شاب بارع اسمه (رحمانوف)، و(رحمانوف) هذا طويل قوي البنية مفتول العضلات، كما أن شعره أصفر طويل ناعم، وعيناه زرقاوان كعيني قطتك وربما أشد، وهو مجاهد عظيم ومخطِّط بارع. اشتهرت القطة السوداء في فترة قصيرة بسرعتها وذكائها؛ فكانت تستهدف الجنود والقادة الذين يغتصبون النساء ولم يسلم منها أحد، حتى أن انتهاك الأعراض قد توقف في الشيشان خوفًا منها. كما أنها بارعة باستخدام كل أنواع الأسلحة خاصة السكين. وفي يوم كنا نكمن لأربعة جنود فوق سطح أحد المنازل، وبينما كنا نجهز أسلحتنا، سمعنا صوت إطلاق نار، فنظرنا فوجدنا الجنود مقتولين، ثم هبط فوقنا من سطح أحد المنازل طيف أسود. لقد كانت القطة السوداء التي قتلتهم بينما نحن كنا نستعد. قفزتْ أمامنا تستند على قدمها اليمنى وقد أثنت ركبتها اليمنى، بينما رجلها اليسرى مفرودة وتلامس الأرض في نهايتها بليونة وتتكئ على يديها. كانت عيناها تلمعان كعيني قطة في الظلام. تفاجأنا عندما جثا (رحمانوف) فجأة على الأرض بدون أية مقدمات، وقال لها 'تزوجيني!!' نظرت إليه وكأنها لا تبالي، وقفزت من سطح إلى سطح مبتعدة. وظل (رحمانوف) في نهاية كل معركة يكتب على أي جدار في

المعركة هذه العبارة "من (رحمانوف) إلى القطة السوداء.. هل تتزوجيني؟؟" فكانت تكتب مجيبة عليه "أنت لا تستحقني بعد!"، وكأنها إشارة منها أنها تريد منه مزيدًا من البطولات. لذلك يا صديقي عليك أن تنتظر في صف طويل حتى تصل إليها".

أثارت كلمات (عديّ) غضبي؛ فقد شعرتُ أنها بعيدة المنال. ولكنها أثارت إعجابي وشغفي أيضًا.

** ** **

(١٢)

هبطت مروحية (حاييم) فوق حطام المعركة الشرسة التي دارت بين الصليبيين والنورانيين في غرب إيطاليا.

وقـف يحـدق في الأشـلاء المتنـاثرة، والسـيارات المـدمرة، والطـائرات المحطمة، وحتى الجياد المقتولة.

قال للراهب النوراني الذي بجواره:

ـ "لقد كانت معركة حامية"

قال له الراهب:

ـ "نعم، وقد هلك فيها خلق كثير. ورغم انتصارنا فلم يبق سوى هؤلاء"، وأشار بإصبعه نحو بضع مئات من الجنود النورانيين ملابسهم رثة ويعبقون برائحة الدم.

قال (حاييم):

ـ "كرموهم وأعيدوهم إلى منازلهم.. يكفيهم ما رأوا"

نظر الراهب إلى (حاييم) في قلق وقال:

ـ "إن الجنود بدؤوا يتشككون في عقيدتهم؛ خاصةً وأن المسيحيين يقاتلونهم بعقيدة قوية وحمية شرسة"

قال له (حاييم):

ـ "لا تقلق، فظهور والدنا الإله سيكون أقرب مما نتصور جميعًا"

ثم ركب طائرته عائدًا من حيث أتى.

** ** ** **

(١٣)

ظل بالي مشغولًا بهذه الفتاة، وكلما تذكرتها اضطرب قلبي وهبطت أحشائي وشعرت بألم لذيذ ممتع في معدتي، وظلت عيناي شاردتين ضائعتين.

تساءلت في نفسي.. "هل هذا هو الحب الذي يتغنى به الشعراء!؟؟".

لم أكن أصدق أبدًا بفكرة الحب من أول نظرة أو تخطر لي على بال، ولكن لا تفسير آخر لما أصابني.. إنه الحب.

ولكن يا لي من أحمق! فأنا أتطلع دائمًا إلى ما ليس لي فيه حق.. إلى المستحيل! فضولي دفعني إلى الساعة لينتهي بي الأمر في السجن. ولكن إلى أين قد يأخذني إعجابي بهذه الفتاة؟؟ هل هناك أسوأ من هذا المكان البارد القذر!!؟

عندما رأى (عديّ) حالي، أنكر عليّ ما أنا فيه، ونصحني كثيراً بأن أشغل بالي بأمر آخر، ولكن ما باليد حيلة! إن القلوب بين يدي الرحمن يقلبها كما شاء.

"يا مُثبِّت القلوب والأبصار ثبِّت قلبي على دينك"، أخذتُ أردد هذه العبارة في عقلي دون أن ألحظ أن لساني ينطق بها أيضًا.

مع أول خيط للنهار، وبعد تأديتنا لصلاة الفجر بقليل، سمعنا أصوات هرج ومرج والجنود يركضون مسرعين. لم تمر بضع دقائق حتى دوّت أصوات زخات الرصاص كسيل الماء المنهمر.

حملني (عديّ) على منكبيه لأرى ما يحدث في الخارج. كانت النافذة ضيقة وقريبة من الأرض، فلم أتمكن سوى من رؤية أقدام الجنود وهم يركضون في عشوائية واضطراب. مررت رأسي من بين القضبان ونظرت

عن يساري، فرأيت القطة الحسناء تمسك بالقضبان بيديها بقوة وقد أخرجت رأسها من بينها تحدق، فرأيت رجلًا ضخمًا، بضخامة صديقي (عديّ) ولكنه أكثر طولًا ورشاقة ووسامة، اقترب يتبختر مبتسمًا إلى قطتي، يسير بثقة لا يراعي الرصاص المتطاير من حوله، حتى وصل إليها، فانحنى نحوها فغطت خصلات شعره الصفراء عينيه، فقعصها ببطء للخلف. أدركت حينها أنه (رحمانوف) قد جاء ليحرر قطتي أو ربما الأصح لو قلت (قطته)؛ فليس هناك أي مجال للمنافسة بيني وبينه.

بالطبع لم أسمع الحوار الذي دار بينهما، وحتى لو سمعت فلن أفهم شيئًا، ولكني تخيلت ما حدث. يبدو أنه قال لها "هل تتزوجيني الآن؟؟".

فأشاحت برأسها رافضة في دلال، فأثار هذا الأمر جنونه، ولمعت عيناه، ثم اقترب منها وأخرج من جرابه مسدسًا قد طلاه باللون الزهري في مداعبة واضحة منه لها، فلم تأخذه ولكنها في حركة رشيقة مدت يدها خلف ظهره، فانتزعت المسدس الذي ثبته في جرابه من الخلف في رشاقة القطة ومكرها، ثم نزلت.

وقف مذهولًا من حركتها مأخوذًا بجمال عينيها، ثم التفت إليّ فوجدني أحدق نحوه، فحدثني قليلًا بالروسية ثم ألقى إليّ المسدس الزهري.

ناولت المسدس إلى (عديّ)، فتعجب منه وحملق نحوي في دهشة.

قلت له:

- "إنها قصة طويلة"

خرجنا من الزنزانة، لنجد مئات المساجين قد فروا، وقُتِل العديد من الجنود وهرب الباقون.
في نهاية السرداب وجدت (رحمانوف) يقف مع القطة يتحدثان ولكن بجدية هذه المرة. يبدو أنهما يخططان لأمر مهم.
بمجرد أن رأى (عديّ) (رحمانوف) ركض نحوه وتعانقا بشدة حتى كاد أحدهما يعتصر الآخر، ثم دار بينهما والقطة حوار طويل، وبين الحين والآخر كان (عديّ) يشير نحوي، فينظر إليّ (رحمانوف) باهتمام، أما القطة فلم تكن تبالي.
حكى لهما (عديّ) قصتي كاملة، وشرح لهما خطورة السلاح الجديد الذي يمتلكه (حاييم)، وأنا الوحيد الذي يعرف نقطة ضعفه؛ فلو هاجمناه في الظلام بعيدًا عن ضوء الشمس سنقضي عليه.
مرت نصف ساعة يتناقشون فيها بجدية، بينما كان الجنود يطهرون المكان ويحررون من بقى من المساجين. وتجولت أنا لأرى المكان الذي كنت محبوسًا فيه.
لقد كان قاعدة جوية قديمة، ولكنها أصبحت بعد ذلك معسكرًا للنورانيين وسجنًا أيضًا، ولا تزال توجد طائرتان تحطان في المدرج.
في نهاية نقاشهم قال (رحمانوف) شيئًا يبدو أنه صدمهم ودفعهم للتفكير مطولًا، ثم لمعت عين القطة ويبدو أنه قد أعجبتها الفكرة التي طرحها (رحمانوف)، أما (عديّ) فقد كان متشككًا. وانتهى المطاف إلى أن رأيي سيكون الفيصل.
اقترب مني (عديّ) وهما يحدقان فيّ وقال:
- "إليك هذه الفكرة المجنونة"

وضم كفيه إلى بعضهما ملامسًا شفتيه بسبابتيه ثم قال:
"لقد طرحها (رحمانوف).. أخبرني برأيك فيها. إنه يقول بأنه كفانا مقاومةً في هذه المنطقة النائية بعيدًا عن مكان صناعة الأحداث، ولنأخذ إحدى هذه الطائرات وننزل بعدتنا وعتادنا بالقرب من (روما) ونشن هجومًا مباغتًا على الفاتيكان.. قد نتمكن خلالها من القضاء على (حاييم) و(تحوت) هذا في آن واحد"
فكرت قليلًا.. سيكون في الأمر مخاطرة كبيرة، ولكنها في نفس الوقت ستكون خطوة غير متوقعة، فقد نتمكن من توجيه ضربة قاضية للنورانيين. وعندما تذكرت الطريقة التي قُتِل بها السيد (عثمان) وافقت أخيراً على هذه الخطة.
بعد ثلاثة أيام من التخطيط المتقن، بدأت الرحلة. صعدتُ إلى الطائرة فوجدت ما يقرب من عشرين مقاتلًا جلدًا مفتولي العضلات يتراصون بجوار بعضهم، نصفهم في جانب والنصف المتبقي في الجانب الآخر، وبالطبع كان من بينهم (عديّ) و(رحمانوف) و(القطة السوداء) التي لا تزال تحرص على إخفاء وجهها.
انطلقت بنا الطائرة، ودار حديث كثير بين الجنود لم أفهم منه شيئًا، فأطلقت العنان لأفكاري. تأملت هذه المجموعة الرائعة من الرجال المجتمعين على هدف واحد، لا رابط بينهم سوى نصرة دينهم وتحرير أرضهم. وتأملت (عديّ) الذي ترك أهله في العراق وخاض غمار رحلة شاقة إلى الشيشان لنصرة إخوانه. ثم هذه المغامرة المجنونة التي يخوضونها نحو معقل النورانيين. ثم تأملت حالي.. أنا لم أقدم أي شيء لديني أو مجتمعي.. حتى عندما طلب مني السيد (عثمان) أن أطلق

القذيفة على الطائرة لم أستطع.. يا لي من فاشل! وأنا كنت أظن أن ذهابي إلى الجيزة مغامرة لم يسبقني بها أحد، وأن فضولي لرؤية الساعة أمر جلل، ولكن هاهم الرجال وتلك السيدة يقبلون على الموت غير مبالين. حقًا، ما نقص عمر من شجاعة وما زاد عن جبن؛ فالموت يدركنا ولو كنا في بروج مشيدة. ربما هذه فرصتي لأقدِّم عملًا جليلًا يُرضي ربي ويترك لي مكانًا في كتب التاريخ، حتى ولو أسطر قليلة.

اختلطت الأفكار وتصادمت في ذهني، ولم يقطعها سوى صوت أنثوي عذب عذوبة العسل المصفى يقول:

- "السلام عليكم"

رددت عليها السلام، وأفسحتُ لها مكانًا عندما شعرت برغبتها في الجلوس.

جلست بجواري، ثم سادت لحظات من الصمت كان قلبي خلالها ينتفض بشدة، حتى أني خشيت أن تسمعه رغم هدير الطائرة.

التفتت نحوي، فنظرت إليها بطرف عيني، وقد انفرطت حبات العرق عن جبيني، فقالت:

- "لقد أخبرني (عديّ) بقصتك.. إنها مؤثرة حقًا"

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة مضحكة؛ فقد كانت كثير من الحروف من غير مخارجها الصحيحة، ولكنها أضفت مزيجًا من الحسن والرقة عليها.

فلمعت عيناي وقلت لها:

- "أنتِ تتكلمين العربية!!؟"

قالت:

ـ "بالطبع؛ فإنها لغة القرآن، كما أن جدي كان واحدًا من أعظم المجاهدين العرب الذين وفدوا إلى الشيشان لتحريرها من الاتحاد السوفيتي"

ابتسمتُ وقلت لها:

ـ "هذا الشبل من ذاك الأسد"

ثم قلت لها: "ما اسمك؟"

قالت برقة:

ـ "القطة السوداء!"

فقلت:

ـ "هذا لقبك.. أنا أسألك عن اسمك"

ابتسمت ثم نهضت وقالت:

ـ "ربما سأخبرك يومًا ما، ولكن ليس اليوم"

ثم عادت وجلست في مكانها.

استمرت الرحلة ساعات طوال نضب منها الكلام، واقتربنا كثيراً من روما، فاكتفى كل واحد منا أن يعيش مع أفكاره وذكرياته قبل أن تحط الطائرة؛ فلعلها تكون الخلوة الأخيرة مع النفس.

تعجبت كثيراً عندما علمت أن ربان الطائرة سيهبط بها بلا ملاحة أو اتصال من الأرض ولكن بخبرته. لقد كان طيارًا بارعًا جدًا في سلاح الجو الروسي اسمه (فلاديمير). رغم أنه كان يحارب المسلمين في فترة من الفترات، إلا أنه يحارب الآن معهم ليقاتلوا عدوهم المشترك. وصلت الطائرة إلى مطار عسكري مهجور في شرق (روما)، وهبطت الطائرة على المدرج المغطى بالحشائش ببراعة منقطعة النظير.

بقـي (فلاديمـير) مـع الطـائرة ليخفيهـا عـن الأنظـار، ويكـون في وضـع استعداد حتى إذا نجحـت الخطـة، فسـوف يكـون هـو وسـيلة النجـاة الوحيدة.

كانت خطتنا رغم بساطتها إلا أنها محكمة أو هكذا ظننت. توجهنا نحو معبد صغير للنورانيين قريب من مكان الهبوط، وسرقنا بعض ملابس الرهبان البيضاء. اتشحت القطة بالبياض رغم ذلك أصرت على أنها لن تنزع قناعها فشعرتُ بالاحباط. تنقلنا في المدينة مخفين أسلحتنا تحت ثياب الرهبان حتى وصلنا بالقرب من قصر (حاييم) الضخم الذي كانت عليه حراسة مشددة.

لم أر في حياتي قصراَ بمثل فخامته أو جماله. الفاتيكان في هذا الوقت كانت تضاهي الجيزة في التحضر والجمال، وكأنهما مِشْعَلّين في عالم من ظلمة البدائية والتخلف.

بدأنا بتنفيذ الخطة، فاتجه اثنان نحو صندوق للقمامة بالقرب من المدخل الرئيسي للقصر وألقيا به قنبلة صغيرة. بعد لحظات انفجرت القنبلة فكانت كفيلة بجذب انتباه الجنود اليها، مما فتح لنا ثغرة صغيرة في الجهة الخلفية للقصر، وتسللنا بحذر إلى الحديقة.

رأيت (تحوت) يغادر القصر نحو مهبط للطائرات العمودية في إحدى جنبات الحديقة، فأعلمت المجموعة بذلك، فقررنا الانفصال إلى مجموعتين.

الأولى تتبع (تحوت)، بينما الثانية تتوجه إلى (حاييم) داخل القصر. كنت أنا والقطة وبعض المقاتلين في المجموعة التي تبعت (تحوت)، و(عديّ) و(رحمانوف) في المجموعة الأخرى.

كان من المهم أن نزامن هجومينا ليكون لنا عنصر المفاجأة، وفي نفس الوقت علينا الإسراع قبل أن يصعد (تحوت) إلى ناقلة الجند الضخمة.
اقترب (عديّ) و(رحمانوف) من الحارسين الصارمين الواقفين عند الباب الخلفي للقصر، وفي هجوم مزدوج مباغت قتلا الحارسين بالسكاكين الحادة وسحباهما إلى الداخل، ومن ثم تبعهما المقاتلون الواحد تلو الآخر.
اقتربنا كثيراً من (تحوت) حتى أنه أصبح في مرمانا، كما أنه كان بين ظلال الأشجار الوارفة التي تملأ الحديقة، أي أنه بعيد عن الشمس، وسيكون في أضعف حالاته، لذا أعد أحد المقاتلين بندقيته للقنص سريعًا وصوبها نحو (تحوت)، وقبل أن يسحب الزناد، دوت طلقات مدفع رشاش من داخل القصر، فنبه ذلك حراس (تحوت) وأحاطوه وأسرعوا به نحو الطائرة.
الوضع داخل القصر كان سيئًا؛ فلم ينجح التسلل وبدأت معركة حامية بين المقاتلين وبين الحرس، ولكن الإيجابي في الأمر أن (حاييم) كان محاصراَ في غرفته، مختبئًا تحت مكتبه من الرصاص المنهمر.
لم يكن أمامنا بد إلا أن نقاتل نحن أيضًا قبل أن ينطلق (تحوت) بالطائرة، ففتحنا نيران مدافعنا وبدؤوا يبادلوننا الضرب.
تجاوزت القطة الجميع برشاقة مذهلة، مستهدفةً (تحوت) الذي كان على وشك الدخول إلى الطائرة، فصوبت سلاحها نحوه وهمت أن تطلق، ولكنه استدار فجأة وأطلق رصاصة من مسدسه نحوها، وكأنه يراها من ظهره، وكأن بصره اخترق أوراق الأشجار وسيقانها، ولولا رشاقتها المذهلة لما تمكنت من تفاديها بأعجوبة.

تعددت الإصابات في صفوفنا وصفوفهم. أما داخل القصر، فبدأت الأصوات تهدأ شيئًا فشيئًا، وكان واضحًا أن فريقًا انتصر.. ولكن أيهما؟؟

*****

رفع (حاييم) رأسه ببطء من تحت مكتبه، فوجد (رحمانوف) يقف أمامه كالأسد الهصور، وقال لـ(حاييم):

ـ "لقد هلك كل جنودك"

هز (حاييم) رأسه وزم شفتيه مقرَا ببراعة (رحمانوف) وفريقه، وتحدث بروسية بليغة لا لبس فيها:

ـ "سيأتي المزيد، كما أنك أيضا فقدت العديد من رجالك...

صوب (رحمانوف) مدفعه نحوه وقال:

ـ "ولكنهم عندما يأتون سيجدونك ميتا...

وضع (حاييم) يده المرتعدة على فمه، وسعل بقوة حتى تطايرت قطرات من الدم من فمه على يده، فأراها لـ(رحمانوف) وقال:

ـ "إنك تقتل رجل ميت.. لا فائدة من قتلي"

هز (رحمانوف) رأسه وقال:

ـ "لا.. إنها ستكون رسالة قوية إلى كل النورانيين أننا نستطيع الوصول إلى عقر داركم وقتل زعيمكم"

قبل أن يهم بإطلاق الرصاص، اخترقت رصاصة ذراع (رحمانوف) من أحد الحراس الذين دخلوا فجأة لنجدة زعيمهم. استغل (حاييم) هذه الفرصة وقفز من النافذة محطمًا الزجاج.

وقف (رحمانوف) المصاب، مذهولًا من هذا الرجل الذي كان قبل لحظات يدعي المرض ويبصق دمًا، ثم في اللحظة التي تليها يقفز من النافذة كشاب رشيق، وقال: "يا له من شيطان!"

لم يكن وضعنا في الحديقة أفضل حالًا؛ فقد تكاثر الجنود حولنا كما الجراد، وبدؤوا بمحاصرتنا، وتساقط إخواننا الواحد تلو الآخر، ولم يبق سواي أنا والقطة، التي احتلت أركانها روح فدائية عندما رأت إخوانها يتساقطون، وركضت صوب الطائرة غير مبالية بأي شيء حولها، وكان الحراس يفرون خوفًا من رصاصاتها المتقنة التصويب أو سكاكينها الحادة المتقنة الرمي التي تسلب الروح قبل أن يدرك الجسد. قفزت في الطائرة التي قد ارتفعت شيئًا بسيطا عن الأرض.
علمت أنها حتى وإن قتلت كل من بالطائرة فإنها لن تقوى على مواجهة (تحوت) وحدها، فقررت أن أساعدها، فنزعت زي الرهبان عني وخرجت من بين الأشجار ملقيًا سلاحي على الأرض.
عندما رآني (تحوت) أمر الجنود بالتوقف عن الضرب، وهبطت الطائرة مجددًا، ثم خرج منها جنديان كبلاني واقتاداني إلى الداخل، فوجدت ثلاثة جثث ملقاة على أرضية الطائرة، والقطة مكبّلة من يديها ورجليها ملقاة على الأرض، ويقف جندي مصوبًا سلاحه نحوها.
لم يكن أمام (رحمانوف) ورفاقه سوى الهرب بعد أن فشلت مهمتهم، فخرجوا من القصر مسرعين تحت غطاء من الرصاص، واتجهوا نحو أحد الأزقة الضيقة، وارتدوا لباس الرهبان مجددًا وذابوا في الجموع الغفيرة المتجهة نحو الكنيسة الكبيرة، فاحتار الحراس ولم يدروا ما يفعلون،

ولكنهم نشروا الخبر عنهم وعن أوصافهم وأن قائدهم مصاب في ذراعه الأيمن، وأغلقت المدينة بالكامل، فلم يعد أحد قادرًا على الخروج منها أو الدخول اليها.

ارتقت الطائرة عاليًا، بينما ظل (تحوت) جالسًا يحدق فيّ مبتسمًا دون أن ينبس ببنت شفة. وجدت صعوبة بالغة في تفسير ابتسامته؛ فهو شخص لا يسهل التنبؤ به.

تنهد بعد صمت طويل، ثم قال:

ـ "يبدو أنه مقدر لك أن تشهد الأحداث العظيمة التي ستقع غدًا"، ثم ألقى نظرة خاطفة على القطة والتفت إليّ مجددًا وقال: "وكما يبدو أنه أصبح لك أصدقاء جدد.. أنت تجيد صناعة الأصدقاء.. ولكن أصدقاءك هذه المرة أجمل، أتعلم؟ عندما رأيتك قادمًا مع أصدقائك تحاول قتلي كنتُ في غاية السعادة؛ فأنت أصبحت أخيرًا مشحونًا بطاقة من الغضب، تحمل السلاح وتقاتل. أصبحتَ تدرك معنى الألم والحزن الذي يمزق القلب. أنا أحتاج إلى رجل غاضب من العالم ليساعدني في تغييره إلى الأفضل.. رجل لا يهاب الموت مثلما كنتَ اليوم"

قلت له محاولًا كظم غيظي:

ـ "ليس العالم ما يُغضِبني، بل هو شخص واحد في هذا العالم.. شخص خان من ائتمنه وطعنه في ظهره.. شخص تحالف مع الشيطان فقط ليحقق حلمًا مستحيلًا وطموحًا ساذجًا في أن يصبح إلهًا.. شخص من المفترض أنه يمتلك عقول العشرات من العلماء والأدباء والمفكرين، ولكنه لم يأخذ منهم سوى جنون العظمة وإنكار الآخر"

ظل (تحوت) مبتسمًا وكأنه كان يتوقع ما سأقول.

أطرق قليلًا ثم قال:

- "صفتان من امتلكهما كانت له اليد العليا على باقي البشر: العلم والقوة؛ فالعلماء لهم العلم الغزير الذي يتفضلون به على باقي البشر، والحكام لهم القدرة على الرعية التي تميزهم عن المحكومين. فإذا اجتمعت هاتان الملكتان في أحد البشر، واتته فكرة النبوة، وهي المرحلة الطبيعية، ثم التي تليها مرحلة الربوبية. نجح الكثير من البشر في كونهم علماء أو حُكام، وكذلك عندما ارتقى البعض منهم ليصنع فكرة النبوة أو الرسالة، هذه الفكرة الخلَّابة التي تجعل الناس يعيشون وهمًا لذيذًا يقدمون من أجله التضحيات والقرابين لإله خفي يسكن السماء ويتفضل على عباده البؤساء بهذه الحياة المزرية، فإنهم نجحوا أيضًا. ولكن لم ينجح أيٌّ ممن حاول الوصول إلى مرحلة الألوهية؛ لأنها تتطلب قدرًا هائلًا من المعرفة والقوة. أنا الشخص الوحيد القادر على سد هذه الفجوة والوصول إلى الألوهية، لينحني لي العالم عن استحقاق وجدارة".

قلت له:

- "أتظن أن الأنبياء لم يصبحوا أنبياء إلا من ذواتهم!؟ لم ينزل عليهم وحي ولم يبعثهم إله!؟ أظن أن (عثمان) أخطأ وصب في رأسك مجموع رؤوس بعض الحمقى!"

نظر من خلال الزجاج وقال:

- "نحن الآن في مصر.. لقد قررتُ العودة إلى المكان الذي بدأ فيه كل شيء لأنهي منه كل شيء، ولأثبت لك أنك مخطئ وأنني على حق. سأريك شيئًا مستحيلًا يتحقق ويصبح واقعًا. أنت قلت إن غياب

الشمس عني يمثل نقطة ضعفي. أنت محق. لذلك لقد وضعت حلًا لهذه المشكلة. أثناء غيابك وحتى عندما كنا في الجيزة، تحالفت مع (حاييم)، فعمل رجاله بكل حزم وسرية على جمع القنابل النووية المتبقية على الأرض -وهي كثيرة- وقنابل أخرى صممتها بنفسي وأعتى وأشد قوة بعشرات المرات، ثم جمعنا كل حفَّارات البترول وأخرى أكبر وأقوى، والمعطلة أصلحناها. أحدثنا بها ثقوبًا عميقة في باطن الأرض في أنحاء متعددة للعالم، ووضعنا في هذه الثقوب القنابل، التي ستنفجر غدًا، وستؤثر على لب الأرض؛ حيث أنها ستعمل كمكابح تمنع الأرض عن الحركة لبعض الوقت، ثم تعاود حركتها مجددًا، مما سيمنحني أطول نهار على الأرض منذ أن وجدت البشرية، خلاله ستبلغ قوتي ذروتها، وستحدث على يديّ المعجزات، وسأخضع الأرض لسيطرتي تمامًا".

وقعت كلماته على مسامعي وقع الصاعقة، ولكني لم أنطق بكلمة. قلت في نفسي: "ماذا سيفعل هذا المجنون!!؟" هل سيفجر القنابل التي كانت سببًا في هلاك البشر ووصولهم إلى هذه الحالة المزرية!!؟"

كانت عيناي مشتتتان بين النظر إلى (تحوت)، والالتفات السريع نحو القطة التي لا تزال ملقاة على الأرض في خضوع ليس من شيمها. قلت في نفسي "لابد أنها تدبر أمرًا"، وصدق ظني عندما رأيتها تنظر إليّ باضطراب فأدركت أنها تنوي فعل شيء وتحذرني قبل أن تقدم عليه لأستعد، ثم رأيتها تنكمش وتتكور حول نفسها على الأرض حتى وصلت يداها المقيدتان إلى حذائها الجلدي الطويل، وأخرجت منه

سكيناً حادة صغيرة، لم يلحظها الحارس بينما كان (تحوت) مسترسلًا في كلامه الذي لم أعد منصتًا إليه.

قطعتْ الحبل الذي يربط يديها ورجليها، ثم نهضت وبرشاقة طعنت الحارس في ساقه ثم بطنه ثم عنقه في أقل من ثانية بضربات ثابتة متتالية، فتكوم الجندي على الأرض غارقًا في دمائه، ثم ألقت السكين فاخترقت رقبة الحارس الذي يقف بجوار (تحوت)، فنهضتُ مسرعًا وانتزعت السلاح من يد الحارس الميت وصوّبته نحو (تحوت)، الذي لم يبق بجواره سوى حارس واحد.

صفَّق (تحوت) بشدة والابتسامة لا تفارق وجهه، وقال للقطة:

ـ "إنك حقًا امرأة استثنائية"، ثم نظر إليّ وقال: "أنا معجب بها، لقد أحسنتَ اختيارها"

أخذت القطة سلاح الحارس الآخر الميت، بينما كان الحارس الذي بجوار (تحوت) يقف مرتعدًا.

شعرت بريح قوية تلفحني فسقطت على الأرض، وأطيح بالسلاح من يدي. نهضت مجددًا ولا أدري ما حدث، فوجدت (تحوت) يقف خلفي ممسكًا بالقطة، يقف وراءها ملتصقًا بها، يلف ذراعه حول عنقها بقوة، ومصوباً السلاح الذي كان معها آنفا نحو رأسها.

نظر إليّ وقال:

ـ "ها هو أمر مستحيل آخر يتحقق"

قلت له بعجب:

ـ "كيف تحركت بهذه السرعة وأنت بعيد عن ضوء الشمس!!؟"

ابتسم وقال:

ـ "إنك تجهل الكثير عني يا صديقي"، ثم قال: "انضم إليّ ولتكن ساعدي الأيمن في الحرب القادمة"

فقلت له بحزم:

ـ "أبدًا.. لن أفعل"

ولكنه قال بحدة:

ـ "ستفعل لأنها إرادتي، وإرادتي فوق كل اعتبار. ألق سلاحك وإلا قتلتها"

نظرتْ إليّ بعين حانية تترجاني ألا أفعل، ولكني ألقيت البندقية من يدي ووقفت مستسلمًا.

طلب من قائد الطائرة أن يفتح بطن الطائرة المعد للقفز بالمظلات.

انفتح الباب من ورائه ببطء، وقد زاد من التصاق جسده بها، وتراجع بها نحو الباب. رجوته ألا يفعل، ولكنه لم يمنحني فرصة للرجاء وألقى بالقطة في الفضاء! وقفتُ مذهولًا عيناي جاحظتان، وقفز قلبي في حنجرتي، وانتفخت عروقي بالغضب يسري خلالها، ثم قلت لنفسي:

"لا يمكن أن تكون هذه نهايتها.. مستحيل.. افعل شيئًا.. فكِّر.. اتخذ قرارًا.. حالًا.. قرار جريء.. اقفز!"

لم أشعر بساقيّ اللتين قادتاني كالمجنون، وركضت كثور هائج نحو الباب المشرع وقفزت ورائها.

وقف (تحوت) مصدومًا، لا يصدق ما يراه، حتى أنه قال للجندي الذي يحملق نحو الباب في عجب: "هل رأيت هذا!!؟ هل رأيت هذا!!؟" وكأنه لا يصدق نفسه، ثم قال: "لن أسمح له أن يهزمني! إرادتي هي التي ستغلب"، وقفز هو الآخر من الطائرة.

وقف الجندي وحيدًا في الطائرة، يتلفت حوله كالملتاث، ويهز رأسه غير مصدق لما حدث، يضرب كفًا بكف ويشعر وكأنه في حلم.

قفزتُ من الطائرة وقلبي ينتفض كعصفور مذبوح. لا أصدق ما أقدمت عليه ولكن لا مجال للتراجع الآن. وجّهت رأسي لأسفل وقدمي لأعلى وذراعاي ملتصقان بجانبي، فكنتُ كصاروخ يشق عباب الهواء على ارتفاع مئات الأميال. رأتني القطة التي كان ظهرها مواجهًا للأرض ووجهها نحوي. ذراعاها وساقاها مفرودان في الهواء لا حول لها ولا قوة. كنت لا أزال بعيدًا عنها، ولكني استطعت أن أرى عينيها الخائفتين.

ودار بيننا حوار الأعين.

قالت عيناها: "أيها المأفون ماذا تفعل!!؟ ما الذي دفعك لتقفز ورائي!!؟؟". نظرت إليها بعين ملأها الإصرار: "لن أدعكِ تموتين.. ليس بهذه السهولة"

"ولكنك ستموت أيضًا!!"

"لا يهم، ولكن لدي خطة وإن كانت بها مجازفة خطيرة بحياتي"

اقتربتُ منها كثيراً فمدت إليّ يدها، وكأنها تريد أن تطمئن ولو بقدر يسير. كادت يدي تصل إليها عندما شعرت بشيء يجذبني من خلفي. نظرت لأعلى فوجدت (تحوت) يمد يده نحو الطائرة بيده اليمنى وكأنه يتعلق بها بحبل خفي، وباليد الأخرى يجذبني رغم أنه يبعد عني عشرات الأمتار، وكأنه يملك قوة جذب يجذبني بها نحوه. لكني تفلتت من هذه القوة وأمسكت بيدها أخيراً وضممتها إلى صدري. نظرت لأسفل فرأيت ملامح صحراء الجيزة واضحة. كانت أمتار قليلة تفصلنا

عن الأرض، عندما شعرت بقوة الجذب مجددًا فاستسلمت لها وأنا قابض على القطة بيدي أكاد أعتصرها إلى صدري.

نظر (تحوت) إلى الشمس التي احمرّ لونها وخبا ضوؤها تريد الهرب إلى الغرب بين تلال الرمال، فعلم أنه لن يصمد طويلًا بدونها.

دفعتني القطة بقوة مبتعدةً عني، ولكني ظللت ممسكًا بيدها، فأصبحتْ مدلاة بباقي جسمها نحو الأرض.

علمتْ هي أن (تحوت) لن يقدر على جذبنا معًا في هذا الضوء الخافت، وحتى وإن نجت من السقوط فمصيرها القتل على يدي (تحوت)، فهززتُ رأسي رافضًا.. "لن أتركِك!".

ولكنها نظرت إليّ بعين دامعة.. "فات الأوان!"، ثم حدقت في بإصرار.. "دعني!"، فرفضت، ففاضت من عينيها الدموع تبددها الريح بعيدًا، ثم نظرت لأسفل فرأينا تلًا رمليًا مرتفعًا عن الأرض بعدة أمتار، سيكون السقوط عليه أسهل وبه فرصة كبيرة للنجاة. ولكني تشبثت بقوة بيدها.

فاستدارت بجسدها برشاقة في الهواء ولكزتني بقدمها في ذراعي، فانفلتت مني وهوت نحو التل.

ظللتُ أراقبها بعيني.. أخذت تنحدر من فوق التل الرملي لأسفل ككرة الثلج. ظللتُ أيامًا أتذكر صوت صراخها عندما ارتطمت بالأرض. طمأنني صراخها أنها لم تمت رغم أنها أصيبت بشدة.

لدى وصولنا إلى الطائرة، قيدني الجندي وأحكم الرباط حول معصمي.

انفتح (تحوت) في الضحك وكأنه كان في نزهة أسعدته. نظر إليّ فوجدني أنتحب في صمت، فقال:

ـ "أنت مغرم بها!! أليس كذلك؟ أتقفز من الطائرة من أجل امرأة!!؟ إن هذا حقًا لشيء بديع.. يجب أن تسطر حماقتك في دواوين الشعراء وكتب الأدب"

لم أجبه؛ فقد كانت نفسي تزدحم بعشرات من الخواطر المؤلمة. تمنيت لو تمسكتُ بيديها بقوة أشد.. تمنيت لو رأيت وجهها ولو لمرة واحدة فأحفره في خاطري حتى لا أنساها، ولكن عيناها تكفيان وزيادة.. تمنيت لو صرخت وقلت لها "أحبك"حتى يخترق كلامي صوت الريح المصم ويصل إلى مسامعها، ولكن فات الأوان! خاطبتني نفسي المتشبثة بالأمل وقالت "لعلها نجت من السقوط". ولكن حتى لو نجت من الوقوع المروع فكيف ستنجو بإصابتها في الصحراء القاسية. اختلطت الخواطر في قلبي وتمنيت لو كنت معها فسقطت ومت وكنت نسياً منسياً.

** ** ** **

(١٤)

اضطربت (روما) وهاجت جموع الرهبان النورانيين الغفيرة التي تسكن المدينة لما حدث في صباح اليوم. لقد هوجم (حاييم) زعيم الطائفة في عقر داره وكان على وشك أن يُقتَل. لقد تسرب الشك في قلوب المؤمنين فما بالك بالعوام. وبدأت الأحاديث تدور حول الإله الذي لن يأتِ والوعود المكذوبة التي وعدوا بها طويلًا.

لذلك لم يكن أمام (حاييم) سوى أن يلقي خطبة جامعة من شرفة الكنيسة الكبيرة، وقد حدد موعدها عند الفجر، تحديدًا قبل بضع دقائق من شروق الشمس، وكان الموعد مقصودًا بعناية.

عندما أغلقت (روما) تمامًا، وطارت المروحيات في سماء المدينة باحثة عن المعتدين، لم يكن أمام (رحمانوف) ورفاقه سوى اللجوء إلى المعبد الصغير الذي سرقوا منه الملابس آنفا، فقيدوا رهبانه وألقوهم في غرفة ضيقة، وأسرعوا بمداواة جرح (رحمانوف)، الذي كان محظوظًا حيث أن الرصاصة قد اخترقت لحم ذراعه ومرت من الجانب الآخر دون أن تصيب العظم.

قرروا الفرار.. ولكن إلى أين؟؟ كانت فكرة (عديّ) هي الهرب جهة الغرب للانضمام إلى المقاتلين الصليبيين في (بريطانيا) أو في (إسبانيا) لمحاربة النورانيين. وبعد نقاش طويل اقتنعوا برجاحة هذا الرأي؛ خاصة وأن الطيران خارج المدينة أصبح ضربًا من المستحيل. فارتدوا زي الرهبان مجددًا بعد أن استراحوا لساعتين، وانطلقوا متخفين ليقطعوا المدينة بالكامل من شرقها إلى غربها متجهين صوب (فرنسا) التي تنقسم إلى نصفين: الأول في الغرب تحت نفوذ المسيحيين، والآخر في

الشرق تحت نفوذ النورانيين، لذلك سيكون الطريق وعرًا طويلًا محفوفًا بالمخاطر.

عند انتصاف الليل بدأ تجمع الرهبان والراهبات في ساحة الكنيسة الكبرى، وقد سرت إشاعة في الجمع أن نزول إله النور المعظم سيكون اليوم على مرأى ومسمع من جموع المتعبدين، لذلك فقد حرص الرهبان من كل شبر في المدينة على الحضور، حتى غصت الساحة باللون الأبيض الذهبي الذي يميز زي الرهبان.

مع الخيط الأول للشمس، وقف (حاييم) في الشرفة الكبيرة يرتدي ثيابًا مختلفة. يلبس عباءة ذهبية تخططها بعض الخطوط البيضاء الرقيقة، وقد زُيِّنت حواف الثوب بنقوش خضراء تلمع، واستبدل عصاه بأخرى لها رأس أفعى أيضًا، ولكنها كانت مطعمة بالعاج، وعينا الأفعى من العقيق الأحمر البراق.

ارتفعت الرؤوس والأعناق في خشوع، منتبهة إليه، تستعد لاستقبال كلمات من شأنها أن تغير مجرى التاريخ، فساد الصمت المهيب على المكان.

وقف (حاييم) برهة من الوقت صامتا لا يتحرك وكأنه صنم منحوت من الجلد الذابل والثياب الثمينة.. وبدأ خطبته:

ـ "اخواني المؤمنين.. أبناء إله النور العظيم، لقد أدركتم جميعًا ما حدث اليوم، فقد حاولت يد الغدر الآثمة مهاجمتنا في عقر دارنا والقضاء على إيماننا الذي لن يخبو أبدا بفضل إله النور، ونور الإيمان في قلوبنا.. ولكني أبشركم أن من رحم المحن والأزمات تولد المنح.. واليوم وقد استعصى علينا النصر وبلغ منا الضعف مبلغه، لم يعد أمامنا سوى

أن نبتهل إلى إلهنا الرحيم ليفك قيود أسره ويجالد فرسان السماء، ليأت لعباده المؤمنين وينقذهم من براثن الصليبيين المتربصين، والمسلمين البربريين...

سيأتينا اليوم إلهنا الجبار.. سيهبط من السماء كصاعقة تقصم الأرض، سيحرر العالم من نير (أدوناي) إله الظلم والقهر، الغاصب المستبد، وتعم نعمه على الأرض بأسرها.لذا يا أبنائي.. ليبق كل منا في مكانه يدعو ويبتهل إلى أن تحل علينا علامة من الأرض أو آية من السماء، تخبرنا أنه قد سمع دعاءنا وسيجيب النداء".

في هذه الأثناء كان (تحوت) ينتصب بالقرب من حطام الساعة أمام رأس أبو الهول المبتورة على الأرض فاردًا ذراعيه في الهواء، وأنا ملقى على الأرض مقيد بجانبه.

نظر إليّ وقال:

ـ "أنت تشهد يومًا من أعظم أيام البشرية.. يوم مولد إله من رحم العجز والفوضى.. ستلمع الأرض في الفضاء كنجم وهَّاج، ستنفجر مئات القنابل في أوقات متقاربة مبشِّرة بقدوم عهد جديد.. ستتوقف الأرض عن دورانها لحظات، فتضطرب البحار والمحيطات، وتنشق أراضي وتبتلع جبال رواسي، وينحسر الماء عن أرض ويغرق أخرى، ويتطاير البشر وباقي المخلوقات عن الأرض كما تتطاير الأذرة عن الرحى لولا حكمة وتدبير مني، وستغزو الأرض أشعة من الشمس حارقة في بعض الوقت وفي البعض الآخر قاتلة، تعطيني هذه الأشعة من القوة ما يكفي ويزيد لأكون إله الأرض الجديد، ويتحول اسمي من (تحوت)

إلى (آمون) سيد الآلهة في كل العصور، والذي يُتغنّى باسمه في كل الديانات في المعابد مرددين كلمة (آمين)".

أخرج (تحوت) من جيبه جهاز تحكم صغير، وضغط على الزر الأحمر الذي يعلوه. انفجرت مئات القنابل في تسلسل وتزامن مدروس.

*****

ارتجت الأرض بشدة في صحراء الأردن، فاستيقظ أهل القافلة مذعورين. قال أحد الرجال: "لابد أنه زلزال!"، ولكن (عبد الله) قال:

ـ"لا.. لقد آن الأوان"

نظر إليه (أحمد) وعيناه جاحظتان وقال:

ـ "أتقصد المعركة!؟؟"

أومأ (عبد الله) برأسه ايجابًا.

اقترب من الجبل الذي تسكنه القافلة منذ عدة أيام غبار كثيف. لقد كان جيش التحالف الذي نشأ بين حكومات سيناء وفلسطين وإمارات أخرى يتلوى في الصحراء كما الأفعى، حتى استقر في النقطة التي أشار إليها (عبد الله) من قبل. ولم تمر سوى دقائق معدودة حتى لاح في الأفق طلائع جيش (مكة) الذي كان أقل عددًا بشكل ملحوظ.

استقر الجيشان كلٌ في مكانه استعدادًا للحظة الحاسمة. كان جليًا أن شيئًا مريبًا يحدث في الأفق؛ فالغيوم تجمعت فوقهم بكثافة، ولكن لم يكن يدري أحد بما أقدم عليه (تحوت).

بعد ما يقرب من نصف ساعة من الترقب، كان الطرفان ينتظران سطوع الشمس ولكنها تأخرت.. ليس من عادة الشمس أن تتأخر ولكن الوغى تُذهب عقول الناس وتنسيهم الحقائق التي لا لبس فيها.

لاحظ (أحمد) أيضًا تأخُّر الشمس في شروقها، ولكنه زعم أن السبب في ذلك هو الترقب الذي يجعل الوقت يمر بطيئًا كبزاقة على أرض خشنة.
خرجت فرقة من جيش التحالف يرتدون ملابس ملونة زاهية، كانت صفراء فاقعة تخططها خطوط بيضاء ناصعة، ويحملون أعلامًا بلون الدم، وبين أيديهم طبول وأبواق، وبدؤوا يشعلون حماسة الجند بالموسيقى العسكرية.
نظر (أحمد) إلى (عبد الله) وقال له:
- "لقد أخبرتني أنه لن تكون هناك معركة"
فابتسم وقال:
- "الفئة المؤمنة ستنتصر بلا قتال.. فقط اصبر وتأمل"
قال (أحمد):
- "لا أعرف كيف ستنتصر فئة دون محاربة، والفئتان متواجهتان يرفعون سيوفهم وانتصبوا خلف دروعهم! هل بعد كل هذا الاستعداد والتحفز سيصغون لصوت العقل!!؟"
فجأة دوى صوت مرعب وكأن لوحًا معدنيًا ضخمًا يتمزق، تلته رجفة قوية كادت تُسقط الذين على الجبل، وأسقطت بعض الرجال عن جيادهم، فالتهى الجميع عن المعركة ووطيسها، والتفتوا إلى مصدر الصوت. رأوا دخانًا أسود ينبعث من الأرض من بعيد، تبعته زفرة لهب جهنمية. بدت ألسنة اللهب واضحة في الهواء رغم أنها تبعد آلاف الأميال!
قال (عبد الله):
- "إنها نار عظيمة تنبعث من باطن الأرض في الشام"

وقف الجميع مشدوهين أمام هذا المنظر المرعب.. لقد تحولت السماء في لحظات إلى تنور باطنه ملتهب ويعلوه دخان وسخام يغطي الأفق. مرّت لحظات من الترقب خشية أن تتجدد ثورة البركان ولكنه لم يفعل. تحيّن قائد جيش التحالف فرصة الذهول التي أصابت الجميع، وأعطى الأمر بالهجوم.

عادت أبصار (أحمد) ومن معه فوق الجبل نحو المعركة، وانطلق الجنود نحو جيش (مكة) وهم يزعقون بحلوق جافة وأصوات أجشة حانقة، وصهلت الخيل حتى امتلأت الصحراء صخبًا وارتعادًا.

تأهب جيش (مكة) الذي بدا ثابتًا راسخًا في وقار أعطاه هيبة وقذف الرعب في قلوب أعدائهم، وقبل التقاء السيوف بأمتار قليلة، تجدد الصوت المعدني الرهيب، ولكنه الآن أقوى وأقرب، فخفت صوت الجند وتجمدت أقدامهم، عندما رأوا غبارًا كثيفًا يقبل كالأفعى نحوهم من جهة الشمال الشرقي، وكلما اقترب هذا الغبار ازداد الرجال الأشداء رعبًا؛ لأنه يزداد ضخامةً واتساعًا، كما أنه لم يتبد منه شيئًا وكأن جيشًا من العفاريت يتقدم نحوهم مغلفًا بالغبار.

اضطرب الجيشان، وانسحب كل منهما مبتعدًا عن الآخر في هرج، واختلط الحابل بالنابل واستشرت الفوضى.

أخيرا أدركوا حقيقة هذا الغبار؛ إن الأرض تنشق نتيجة الزلازل التي تعصف بها وتبتلع الكثبان الرملية الواحد بعد الآخر. وكلما ابتلعت كلما اتسعت وازدادت عمقًا. اتجه الشق العميق صوب جيش التحالف وكأنه مأمور بالتهامه. فزع الجند وولوا هاربين، ولكن لا مفر من قضاء

محتوم، فتساقط الرجال كـالفراش في النـار، يصـطرخون ولكـن مـا مـن مجيب.
سيطر الفزع في قلوب جيش (مكة)، وصرخ أحد القادة قائلًا:
ـ "فليثبت كل في مكانه؛ فقد تكون الأرض تحت أقدامنا هشة فلا تثيروها بهرجكم"
فتجمـدوا في أمـاكنهم وكـأن عـلى رؤوسـهم الطـير، يرقـب كـل مـنهم الآخرين ويتصببون عرقًا، ثم بدؤوا يتحركون واحدًا تلو الآخر مبتعـدين عن الهوة العميقة، حتى تجمعوا أخيرًا بـالقرب مـن الجبـل الـذي فيـه القافلة.
وقف (عبد الله) متهلل الوجه، ونظر إلى (أحمد) وقال:
ـ "ألم أخبرك؟ اتبعني الآن لنقابل المهدي ونصافحه"
دهش (أحمد) من هذه الجملة وقال "المهدي!؟"
أجابه (عبد الله) وهو ينزل طريق الجبل الضيق:
ـ "بالطبع هو المهدي.. اتبعني"
نزلت القافلة واتجهوا نحو الجيش الذي كان يحتفل بالتهليل والتكبـير، ويرددون عبارة "ظهر الحق.. ظهر الحق!"
تقدم (عبد الله) القافلة بابتسامة عريضة على وجهه حتى بدت أسنانه البيضاء اللامعة.
استقبلهم الشاب الوسيم الذي أنقذ (أحمد) من براثن الثور آنفًا، بذراعين مفتوحين، واحتضن (أحمد)، ثم قال له ولـ(عبد الله): "اتبعاني حتى تقابلا أمير المؤمنين"

لقد كان هذا الأمير رجلًا في أواخر الأربعين من عمره، شعره أسود ولحيته بحجم قبضة اليد، يبتسم فيشرق وجهه. صافحهم بقوة فشعر (أحمد) بلين يده رغم قبضته القوية، ثم قال:

ـ "أنت (أحمد) أليس كذلك؟ أنا سعيد أنك بخير"

سأله (أحمد):

ـ "كيف علمت بحالي وطلبت من مساعدك أن ينقذني!!؟؟"

ابتسم وقال:

ـ "لقد رأيتُ حلمًا ثلاث ليال متتاليات بأن يأتيني عجوز أبيض الشعر بشوش الوجه ويخبرني 'أنقذ (عبد الله) في أرض كذا.. ستجده جاثيًا وبجواره رجل يبغي إيذاءه فاقتله'. فسألت الشيخ 'كيف أعرفه؟' فأجابني سيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأخبره إذا نفذ منك الماء فابحث عن البئر المعطلة'، ففعلت".

ثم قال:

ـ "يبدو أن الله قد ادَّخرك لأمر مهم"

اقترب منه (عبد الله) وقال له همسًا:

ـ "هل أدركت أنك أنت المهدي المنتظر؟"

قال الأمير:

ـ "يا عم أخشى أن يضل الناس بسببي وأن أكون فتنة لهم، فلا يزال الشك يغزو قلبي"

فقال له (عبد الله):

ـ "سبحان الله! نار عظيمة تخرج من الشام، وجيش يبغي هدم الكعبة تخسف به الأرض.. أليست هذه علامات كافيات لك!؟"

هز الأمير رأسه وقال:

ـ "أنت محق"

التفت (عبد الله) إلى (أحمد) وقال:

ـ "يمكنك أن تتبع المهدي الآن، أو ترافقني لأمر مهم"

قال له (أحمد):

ـ "وما هذا الأمر؟؟"

قال (عبد الله):

ـ "إن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا"

لم يتعجب (أحمد) عندما أدرك أن أغلب رجال القافلة قرروا أن يتبعوا (عبد الله) في رحلته الجديدة، رغم أنه أخبرهم أنها ستكون رحلة طويلة شاقة مفعمة بالمخاطر ومصحوبة بالأهوال؛ لأن هذا الزمان هو زمن ظهور المسيخ الدجال، ولكنهم بعدما رأوا منه لم يعودوا يبالون؛ فقط يبغون اتباعه والتبرك بالقرب منه.

** ** ** **

(١٥)

بعد أن مرت ساعة على تصارع باطن الأرض مع ظاهرها، وتماوج المحيطات وانهدارها، شعر (تحوت) أخيرًا بأشعة الشمس التي اخترقت غلاف الأرض فزادت قوته وتعاظمت أضعافًا. التفت إلى الحارس الذي يقف على رأسي وقال له:

ـ "اذهب به إلى السجن إلى أن أفرغ له"

تعجب الحارس فقال له:

ـ "ألن تأتِ معنا؟"

ـ "لا"، أجابه (تحوت) بزهو.

تعجب الحارس وقال:

ـ "كيف ستعبر الصحراء اذن!!؟؟"

لم يكد ينتهي، حتى شهدنا (تحوت) يندفع في الهواء كصاروخ، حتى أن حبات الرمال التي بين قدميه تبعته لبعض الوقت مذهولة. ظللنا نراقبه حتى غاب عن أعيننا.

هز الحارس رأسه، وكأنه استمرأ رؤية العجائب، وركلني في ظهري وقال:

ـ "قم؛ فلدينا رحلة طويلة نقطعها"

في سماء (روما) هبت ريح عاصف، وتلبدت السماء بالغيوم، وتساقطت البروق من السماء كشهب تضرب الأرض. تمسك الرهبان بملابسهم التي تكاد تقفز من فوق أجسادهم فزعًا، والخوف والترقب يلفهم من كل جانب، ولم يعودوا يلتفتوا إلى (حاييم)، الذي ظل يردد

"إنها تباشير الرب! إنها أهازيج النصر تعزف في السماء! صبراً أيها المؤمنون؛ فالمعركة أوشكت على الانتهاء، تتلوها أفراح على الأرض!"
فجأة، انقطع هزيم الرعود، وتوقفت البروق اللامعة عن النزول، وانحسرت الريح، وانزوت السحب بعيدًا، فبدا ضوء الشمس التي تقاوم طبيعتها في الشروق خافتًا.
فأطل الناس برؤوسهم حيرى يتلبدهم الوجل.
قطع هذا الصمت المطبق صوت جهوري لراهب شاب يقول: "انظروا هناك!"
حملق الناس صوب اشارته، فرأوا جسدًا غريباً يندفع نحوهم كنسر يهوي على فريسته، فانبطحوا جميعًا على الأرض مرتعدين. ارتطم بالأرض، فحثت الريح من حوله التراب في وجوههم، وتشققت الأرض.
ظلوا راكعين لا يقوى أحد على النهوض من هول الفزع، فتبدَّى من بين الغبار (تحوت) يرتدي عباءة ذهبية لامعة براقة، وبحيلة ما ينبعث من وجهه ويديه نور مبهر للعيون لاصف للأبصار، فلم يقو أحد على النظر، وتجمدوا كلٌ في مكانه.
بدأ النور يخبو شيئًا فشيئًا، حتى تمكنوا أخيراً من رؤية (تحوت)، يقف شامخًا ترفرف عباءته الذهبية خلفه.
فصاح (حاييم) في الجمع:
- "أيها الناس! لقد حضر مليككم!!"، وأحنى رأسه في خضوع، فسجدوا جميعا في انكسار.

دار (تحوت) حول نفسه بفخر وزهو، يتأمل الحشد الخاضع له، وقال بصوت كزئير أسد صاحبته زمجرة رعد، صوت أخمد الرؤوس دون إرادتها: "**عبادي!**"

** ** ** **

(١٦)

في خضم هذه الأهوال المتلاطمة، لم يكن يدري كثير من عامة الناس ما يحدث.

فهذا (جابر) الراعي يعلم أن حدثًا جللًا يدور من حوله، ولكنه لا يدرك كنهه ولا يهتم إلا بنعاجه والماعز رغم اضطراب الصحراء وهيجانها. فالجبال تمر مر السحاب، والتلال تولد وتموت في دقائق، وتغيرت معالم الصحراء تمامًا، إلا أنه لم يهتم بنصائح أصحابه الرعاة بأن يلزم خيمته ويقضي اليوم مترقبًا وآثر الخروج؛ فالحذر لا يمنع القدر كما قال لهم.

أثناء تجواله في الصحراء التي قضى فيها جل عمره -ولكنه الآن أصبح لا يعرفها بعدما تغيرت ملامحها- لاحظ خرقة سوداء ملقاة بجانب إحدى التلال العالية، فاقترب منها بيديه المرتعدتين، ولكزها برفق بعصاه الخيزرانية.

جحظت عيناه الغائرتين عندما رأى امرأة غارقة في السواد تنقلب على ظهرها في الرمال، فارتعدت أطرافه ونظر في السماء ملوحًا بكفيه الخشنين وجأر بصوته الضعيف: "يا ذا الألطاف!"، وانكب فوق الفتاة يتسمع أنفاسها، فسمع صوت أنفاسها متهدجًا ضعيفًا، ولم يبد منها سوى عيناها النائمتان، فنزع القناع عن وجهها، فبدا وجهها ذابلًا ضعيفًا، وشفتاها متشققتان كالأرض السمراء إذا غاب عنها الماء، فاحتملها بين ذراعيه الهزيلين، وهرول بين الرمال وهو يردد "تماسكي يا ابنتي تماسكي"

فتحت القطة عينيها، فوجدت نفسها في غرفة صغيرة مبنية من الطوب الجيري الأبيض، ومسقوفة بعارضتين من جذوع النخل مغطاة بأعواد الحطب وسعف النخل. حاولت أن تنهض فلم تستطع.

دخلت عليها امرأة ترتدي ملابس براقة فاقعة الألوان، وينسدل على وجهها برقع أسود. عندما دخلت أزالت البرقع، فبدا وجهها الممتلئ مخطوطًا بثلاثة خطوط خضراء على ذقنها.

انتفضت القطة لدى رؤيتها لهذه المرأة، فطمأنتها المرأة:

ـ "اطمئني يا ابنتي أنتِ في أمان.. لقد أنقذك (جابر) عندما كنتِ على شفا الموت"

حاولت أن تتكلم ولكن حلقها كان جافًا كعود حطب لفحته الشمس شهراً، فبللت المرأة قطعة من القماش ومررتها على شفتيها وهي تقول:

ـ "لا يزال الماء خطراً عليك"

بعد أن اطمأنت القطة، بدأت تتفحص نفسها، فوجدت نفسها في عباءة مزركشة مثل التي ترتديها تلك المرأة، وذراعها الأيسر مُجبراً وكذلك ساقيها.

غمغمت بكلمات بصوت خفيض، ثم أغمضت عينيها مجدداً وغرقت في نوم عميق.

هشَّت المرأة الذباب من الغرفة، وأغلقت النافذة بقطعة من القماش، وغطت القطة بملاءة بيضاء، ثم خرجت وأغلقت الباب.

** ** ** **

(١٧)

انفضت جموع الرهبان من الساحة الكبرى، بعدما استمعوا إلى خطبة عصماء من إلههم الذي هبط من السماء، وعدهم فيها بنصر مطلق ونعيم مقيم، وتوعَّد الذين كفروا بعذاب أليم.

سار (حاييم) بخضوع وتذلل مصطنع، يسير بجواره (تحوت) نحو الغرفة الصغيرة في نهاية السرداب.

غادر كل من بالغرفة ولم يبق سوى (حاييم) و(تحوت) وكاهنان طاعنان في السن.

حدق (حاييم) في (تحوت) قليلًا ثم قال:

ـ "رائع.. لقد كانت خطبة عصماء تلك التي ألقيتها. تدهشني طريقتك في تبرير عوار عينك والجراح على جبينك، عندما وقفتَ شامخًا وقلت إنها آثار المعركة الملحمية التي كانت في السماء، وإنك تركت هذه الندوب ولم تمحها لتُذكر البشر كم ضحيت من أجلهم"

قال أحد الراهبين بشفتيه المجعدتين المنفرتين:

ـ "ألم يحن الوقت للبدء؟"

قال (تحوت) بتعجب:

ـ "البدء في ماذا!؟؟"

تنهد (حاييم)، فصاحب زفرته سعال حاد حتى تفصد العرق عن جبينه، وجلس على أحد كراسي الطاولة المستديرة، وشرب قدحاً من الماء ثم قال:

ـ "إذا أردت أن تكون إلهًا فعليك أن تمتلك كل قوة ممكنة على الأرض"

قال (تحوت) بزهو:

ـ "أنا الأقوى على الأر... "
قاطعه (حاييم):
ـ "نعم نعم.. أعلم ذلك، ولكني سأمنحك قوة من نوع آخر، قوة تبهر أعداءك وتقذف الرعب في قلوبهم"
ـ" ما هي هذه القوة!؟"، قال (تحوت) هذا السؤال بفضول طفولي.
التفت (حاييم) إلى الراهب وقال له: "الآن!"
فتوجه إلى شمعدان ينمو من الجدار كفرع صغير لشجرة كبيرة، وأماله برفق، فتراجع جزء من الجدار، وظهر شق كبير، ليتحول إلى باب حجري صغير، توارب قليلًا فلفحتهم ريح باردة تحمل معها خواء وظلمة.
دفع الراهب الباب بيديه الضعيفتين، فانفتح، وبدت خلفه غرفة واسعة مظلمة، فأخذ الراهب شعلة وأضاء بها بعض المشاعل القديمة النابتة على جدران الغرفة السرية، فأصبحت معالمها واضحة للعيان.
غرفة فسيحة، جدران سميكة، أعمدة منقوشة بنقوش غريبة، وفي الركن على يسار الداخل طاولة بيضاوية صغيرة، يحيط بها ثلاثة كراسي مصنوعة من الخيزران، موضوع عليها قماش أبيض محشو بالقطن الناعم. أما على اليمين تقبع مكتبة ضخمة يختبئ الحائط خلفها فلا يبدو منه شيئًا، عليها نقوش لنجوم سداسية، وأهرام متعددة الأشكال والألوان. ومن بين الأبواب الزجاجية تبدت كتب عتيقة، البعض منها مكتوب على رقاع الجلد.
اتجه الراهب إلى الركن المظلم من الغرفة، ومكث قليلًا ثم خرج من الظلمة كشبح وبين يديه طست كبير، ووضعه أمام (تحوت).

خرج الراهب دون أن يتكلم، ولم يبق بالغرفة إلا (تحوت) و(حاييم) وراهب.

فتح الراهب أحد أدراج المكتبة الضخمة، وخرج منها ببعض الكتب المتهالكة، وبدأ يصفها بجانب بعضها داخل الطست، و(تحوت) يحدِّق في الكتب فرأى نسخة من القرآن وأخرى قديمة حتى أنها كادت تتفسخ من دون أن تُلْمَس، ونسخ متعددة من الأناجيل وكتب أخرى لم يستطع أن يتبين كنهها.

بعدما انتهى الراهب نظر إليه وقال:

ـ "انزع ملابسك!"

تعجب (تحوت) من هذه العبارة، والتفت إلى (حاييم).

قال له (حاييم):

ـ "أنت توشك أن تطَّلع على سر مهم وتحصل على قوة كبيرة"

استمر (تحوت) في وقفته الصنمية يحدق في (حاييم)، فتنهد (حاييم) ثم قال:

ـ "أنت توشك على أن تخرج في رحلة إلى مكان لم يذهب له سوى القليل على هذه الأرض.. يجب أن تمتلك قوة السحر لتحوز كل قوة على الأرض"

انفتح (تحوت) في الضحك، وقال:

ـ "السحر!!؟ عن أي سحر تتحدث!؟"

تنهد (حاييم) مجددًا وقال:

ـ "لقد أخطأ (عثمان) عندما وضع في رأسك عقول علماء فقط؛ فالعلماء لا يعرفون كل شيء -وإن عرفوا الكثير. انزع ملابسك، واصعد في الطست وسترى أن السحر حقيقة لا مراء فيها".

فعل (تحوت) ما طلب منه، ووقف بحذائه فوق الكتب المقدسة.

أعطاه (حاييم) ورقة صفراء مكتوب عليها بالدم كلام غير مفهوم، وقال له:

ـ "اقرأ ما فيها بصوت مرتفع ولا تتوقف مهما حدث"

ارتفع صوت (تحوت) بكلمات: "دمحلا هلل بر نيملاعال... نمحرلا ميحرلا......"

أثناء تلاوة هذه الكلمات، اقترب منه (حاييم) وصب فوق رأسه قدرًا كبيراً من اللبن المخلوط بالدم. غطى السائل وجه (تحوت) لبعض الوقت فغاب عن عينه الضوء، فمسح عن وجهه السائل ليواصل القراءة...

تفاجأ عندما وجد نفسه يقف وحده في مكان مظلم وقد اختفى (حاييم) والراهب!

"أين أنا!؟"

بدأ يتساءل بصوت عال ولكن لم يجبه أحد. حتى أن صدى صوته لم يرتد ليخبره بأن هناك نهاية لهذه الظلمة الظلماء.

سمع صوتًا خافتًا يأتي من خلفه. هل هو صوت أفعى تفح؟ لا.. إنه شيء آخر. التفت ببطء ليرى كلبًا أسود عظيمًا بحجم مهر صغير، عيناه تشعان باللون الأحمر، يقف أمامه ويزفر زفرات مخيفة. دب الرعب

في قلب (تحوت) وشعر بالفزع، فاقترب منه الكلب ببطء واستدار أمامه في إشارة منه ليركبه.
تجمد (تحوت) في مكانه وكأنه نبتت له جذور، فزمجر الكلب ثم نبح نبحة كادت تُسقِطه على الأرض، فلم يجد بدًا من ركوبه.
بمجرد أن ركبه، انطلق كبراق في هذه الظلمة المدلهمة.
ظل الأمر على هذا الحال لبعض الوقت، حتى شعر (تحوت) أنه في كابوس مرعب يرغب في الاستيقاظ منه.
بدا في نهاية هذه الظلمة ضوء أصفر خافت، وكأنه ضوء لشعلة صغيرة تكبر شيئًا فشيئًا، فأبطأ الكلب ثم توقف في النهاية، ليجد (تحوت) نفسه تحت الأرض، يقف أمام باب خشبي بال، تتسرب من شقوقه أشعة الضوء الصفراء هاربة في ذعر، وتتحشرج من وراء الباب أصوات ليست لبشر ولا يمكن أن تصدر عن حيوان.
التفت خلفه فلم يجد الكلب، فدفع الباب ببطء ودخل.
"اغلِق الباب خلفك، وتعال"
صدرت هذه الكلمات من صوت مفزِع وكأنه ملك الموت للحساب.
أغلقه (تحوت)، وسار ببطء نحو مصدر الصوت.
المكان الذي يسير فيه غريب وكأنه مبني من الظلمة، لا يرى جدرانًا حوله، ولا يرى الأرض التي يسير عليها، كأن الضوء الخافت الذي يأتي من بعيد يضيء له بقدر رغبة صاحب الشعلة أن يرى.
وصل أخيرًا إلى مصدر الصوت.
إنهما ملكين في هيئة بشرية ألبسها عليهما الله، حولهما الله إلى بشريين لينزلا إلى الأرض ويعانيا ما يعانيه البشر؛ ليعلم الملائكة أن الفتن التي

تصيب بني البشر طاحنة للنفوس كاشفة للمعادن، فعصى الملكان -البشريان- ربهما في امرأة فاتنة أغوتهما، فخيرهما بين العقاب في الدنيا إلى قيام الساعة أو دخول النار، فاختارا عقاب الدنيا؛ فهما معلقان رأسًا على عقب منذ المعصية وحتى قيام الساعة، يرشدان من يأت إليهما على الطريق إلى السحر، ويعلمونهم كيف يعمل.

قالا: "إنما نحن فتنة فلا تكفر!" ولكنه أصر، ثم توجه نحو تنور بالقرب منهما ناره عظيمة، مستعر بغير وقود، وتبول فيه.

شعر أثناء تبوله بأن جبلًا كبيرًا يطبق على صدره، وكأن هموم الدنيا كلها اجتمعت عليه لتخنقه، ثم شعر بضوء صغير كفلقة الفول تُنتزع من صدره وتعرج إلى السماء.

حينها شعر بألم فظيع وندم قوي فأغمض عينيه وصاح صيحة مرعبة.

فتح عينيه ليجد نفسه في مكان غير الذي كان فيه....

تبددت الظلمة، وتبدل التنور...

يقف على تلة تطل على أرض تشبه الصحراء ولكنها ليست كذلك، لقد كانت رمالها حمراء ناعمة وكأن نهراً من الدماء يسير في باطنها. رفع رأسه لينظر إلى الشمس فوجدها تشع ضوءا دموياً مخنوقًا مثل الذي يشعه القمر ساعة الخسوف.. ما هذا المكان الغريب؟!!

التفت إلى جواره، فتراجع فزعًا عندما رأى (حاييم) يقف بجانبه يحدق في الأفق.

قال بصوت يرتعد:

ـ"أين نحن؟ ما هذا المكان؟!"

لم يلتفت إليه (حاييم) ولكن ظل يتأمل المنظر بملامح جامدة تحمل قليلًا من الزهو ثم قال:

ـ "نحن في أرض برزخية بين عالمي الجن والبشر".

اهتز كيان (تحوت) كشجرة وارفة في يوم خريفي، وسرت قشعريرة حامية في ظهره، وردد كلمات (حاييم) لا إراديًا.. "أرض برزخية".

أشار (حاييم) إلى الرمال المنبسطة أمامه، ثم قال:

ـ "تأمل ما سيحدث قريبا"....

حدق (تحوت) في الرمال، فشعر أنها تتحرك وكأن جيشًا من الأفاعي يزحف تحتها، ثم أطلت رأس من بين الرمال. صدرت صرخة ملتاعة من (تحوت) دون أن يشعر.. ما هذا؟!!!

ظلت الرؤوس تطل حتى خرج جيشًا كاملًا من بين الرمال...

أشار (حاييم) إليهم فجثوا كل منهم على ركبة واحدة واستند بذراعه على الأخرى، فقال ل(تحوت):

ـ "أصبح لديك الآن جيشًا كاملًا من الجن ولكنك لن ترهم إلا في هيئة بشرية، يمكنك أن تسلطهم على أمة بكاملها فيرعبوها ويدمروها لو شئت".

ثم طقطق بإصبعه في الهواء، فانطفأت الشمس وأظلمت الصحراء، ووجد (تحوت) نفسه يقف وحيدًا في الظلمة مجددًا، وشعر وكأن قوة عجيبة تجبره على أن يغمض عينيه.

فتحهما ثانية فوجد نفسه لا يزال واقفًا في الطست مغمورًا باللبن الدموي وكأنه لم يبارح مكانه ولم يخض هذه الرحلة المفزعة. نظر إلى

(حاييم) مشدوهًا لا يدري ما يقول.. ولكن (حاييم) لم يمهله فطلب منه ارتداء ملابسه وقال له:

ـ "استعد لأنك ستذهب إلى جنوب لبنان".

تعجب (تحوت) من هذه اللهجة الآمرة، ثم قال:

ـ "ولم أذهب إلى هناك"؟

تنهد (حاييم) وقال:

ـ "ليتبعك اليهود هناك".

حدجه (تحوت) بنظرة مستغربة:

ـ "ولم يتبعونني؟!! ولم اليهود بالذات"؟!!

قال (حاييم):

ـ "انهم مهزومون، مغلوب على أمرهم كامرأة مات زوجها وقهرها أبناؤه، يتشبثون بالأمل كالغريق بقطعة من الخشب في عرض البحر، يخبرهم الحاخامات بأن وقت ظهور مسيحهم المخلص قد آن.. اذهب اليهم واقنعهم بأنك المخلص قد جاء اليهم ليركع بين أيديهم العالم، سيتبعوك.. وبذلك تكون قد اكتملت قواك وامتلكت كل قوة على الأرض ولن يبق سوى (مكة) تدخلها وتدين لك كل الأرض".

** ** **

(١٨)

مر شهر منذ أن اضطربت الأرض كمعدة مسممة، وتباطأت حركة الشمس كسلحفاة على شاطئ رملي.

احتشدت جموع اليهود من شتى أصقاع الأرض كذباب على الجيفة، وانطلقوا بسفنهم صوب (روما) لينضموا إلى جيش (تحوت.. آمون.. المسيح... المخلص.... ابن الرب... الرب نفسه). تعددت الألقاب والصفات، ولكن لم يكن أحد يبالي بصفته بقدر اهتمامهم بمعجزاته وأنهم أصبحوا أخيراً في الكفة الراجحة.

منذ شهر وأنا اتقلب في سجن قُدَ من الجحيم، فقد أقام (تحوت) سجنًا لمن رفض الإيمان به.. تفنن في بنائه وتصميمه ليكون فتنة لمن يدخله.. إنه أشبه بقبو يبلغ حوالي خمسة أفدنة تحت الأرض، الأسرى يُلقون فيه مقيدين بسلاسل تجر أثقالاً فيتحركون كحيوان الكسلان.

الطعام زقومي المذاق، والماء حميمي الشراب "بئس الحياة تلك". كل ليلة يأتي الحراس ويأخذوا أحدنا يجلدوه طوال الليل حتى تُدمى أيديهم وتترك السياط أخاديد في ظهره.

لا أعرف ما دفعني على الصبر على هذا المكان، لا أعرف من أين جاءتني هذه العزيمة الفولاذية لأقاوم هذا العذاب دون أن أستسلم للموت.. يمكنني أن أفعل مثل كثيرين قبلي.. أطلب العفو وأسجد أمام تمثال (تحوت) الذهبي وأصير بعدها جنديًا في جيشه، بل أنا على الأخص سأنال مكانة وحظوة لم يصل اليها أحد.

ربما يكون منظر عيني القطة المرتعدتين أو عيني (عثمان) والموت يغزوهما، أو ربما يكون الشيخ العجوز الذي في ركن القبو هو من يبث العزيمة في نفسي كالكير في النار.

عندما رأيته أول مرة بدا لي كرجل عائد من العصر الحجري، لحيته تنطلق تحت ذقنه كمروحة بيضاء ويرتدي ملابس من رقاع الجلد تنسدل من فوق كتفه الأيمن وتمتد إلى أن تستر عورته.

كان فقيهًا عالمًا حكيمًا، لا يتكلم إلا لضرورة، ورغم التعذيب الذي يلاقيه فإنه لا يشتكي.

خرج بنظرية غريبة جعلتني أضحك رغم ما أنا فيه من هم، عندما قال إن (تحوت) هو المسيح الدجال فهذا زمانه...

ضحكت حتى أدمعت عيناي وقصصت له قصتي مع (تحوت).

قال لي:

ـ "إن كنت تظن أن المسيح الدجال سيهبط من السماء أو أنه مخلوق خرافي في جزيرة معزولة ينتظر أن يحين الوقت فأنت مخطئ.. المسيح الدجال فتنة وأشد فتنة قد تصيب البشر هي أن يقعوا في الشك فلا يعرفوا إن كان هذا الذي يعذبهم ملك ظالم أم أنه الدجال الذي يخشى مجابهته كل مؤمن".

ـ"لا أعرف ماذا أصدق، ومازلت لا أصدق كثيراً مما عرفته ورأيته"، هذه كانت اجابتي على الشيخ الحكيم.

انطلقت جحافل جيش (تحوت) صوب غرب فرنسا حيث سيكون اللقاء المحتوم مع المسيحيين المنضوين تحت راية ملك انجلترا وغرب فرنسا.

عندما استشعر المسلمون في هذه الدول الخطر الداهم انضموا إلى الجيش تحت لواء أنشأه (رحمانوف) وصديقه عدي.

التقى الفريقان في معركة أسطورية طاحنة، انتهت المعركة كما كان متوقعًا.. انتصار ساحق ل(تحوت) وجنده.

لم يكن المخيف في الأمر انتصار (تحوت) وفريقه أو هزيمة جيش من الصليبيين تعدادهم يفوق نصف المليون مقاتل مدججين بكل أنواع الأسلحة، ولكن المرعب في الأمر تلك القصص المروعة التي ألقيت على مسامعنا كصخور ترضخ الرؤوس.

بدأت القصص تتوالى مع تزايد أعداد الأسرى الذين يُستقدمون إلى السجن...

من هذه القصص، أن الليلة التي سبقت المعركة كانت عجيبة، الجياد مسها شيء من الجنون.. تتقافز في فزع وكأنها ترى أشباحًا لا يراها البشر، انتشرت الأفاعي في المعسكر حتى أنهم وجدوا ثعبانًا مسلوقًا، سقط عنوة في قدر الطعام، فلم يستطع الجنود النوم وكانوا يتناوبون الحراسة، ليس خوفًا من العدو بل خوفًا من جيش الأفاعي والعقارب المتستر بالظلال والأحراش.

قبل بدء المعركة دوت أصوات الرعود دون أن يروا السحب، وانقضت عشرات الصواعق على المعسكر الصليبي كأنها صواريخ موجهة من السماء تستهدف مخازن السلاح، وعندما تموضع الجيشان وضع القتال

وانتصبت الصفوف كجدران اسمنتية صلبة، هبت ريح سموم على الجيش الصليبي اقتلعت الجدار الأسمنتي من جذوره حاملة رمال صفراء تعمي الأبصار.
استمرت المعركة لمدة سبع ساعات طاحنات، انفرط بعدها العقد الصليبي وبدأ التقهقر...
قُتل عشرات الآلاف في هذا الفرار الأليم، ليس لسوء قيادة أو تدبير ولكن لهمجية وقسوة محاربيهم.
انسحبوا نحو إسبانيا المعقل الأخير...
قرر (تحوت) الزحف نحوهم دون توقف حتى يقضي عليهم تمامًا، ولكنه شعر بشيء من القوة والغرور- وقد كان محقًا- فقسّم جيشه إلى نصفين أحدهما يتوجه نحو روسيا ليحارب المقاومة المتنامية هناك، والنصف الآخر يتوجه نحو إسبانيا ويكنس في طريقه بريطانيا العظمى.
انطلق (تحوت) مدفوعًا بجنون العظمة وزهو الانتصار نحو إسبانيا، وقد امتلك سلاح الرعب.. فكانت القرى والمدن إما أن تخرج لتقابله معلنة الولاء والطاعة وتقيم له تمثالاً كبيراً في ساحة البلدة، أو يولون هاربين...
أمر المواجهة صار ضربًا من الخيال.
لا قيمة للسلاح الفتاك إذا كانت اليد التي تمسكه ترتعد، ولا فائدة تُرجى من أسوار عالية وحصون منيعة إذا كانت قلوب ساكنيها خانعة مستكينة...

فقد كان ملك إسبانيا صاحب الحصن الوحيد المتبقي الذي يتحصن خلفه بنو الصليب، ولكنه لم يكن أهلًا لتلك المسؤولية. فرغم مجاوزته للستين إلا أنه يعشق الخمر أشد من حبه لأبنائه ولا يفيق من سكره أبدًا.. يتقلب في شهواته المنحرفة بين العذارى من الجواري والصبيان، بدلًا من أن يستعد للحرب ويهيء جيشه. أرسل إلى (تحوت) يفاوضه على الصلح ويقدم له التنازل تلو الآخر، حتى أنه فاوضه على الدخول في النورانية وإجبار كل سكان الأندلس والوافدين اليها على اعتناق هذا الدين الجديد في مقابل الحفاظ على العرش، ولكن (تحوت) الذي رأى في نفسه إلهًا لا يُقهر رفض طلبه وأخبره أنه لا بديل عن الحرب ثأرًا لأرواح بضعة الآلاف الذين هلكوا من النورانيين في المعركة السابقة.

عندما أدرك الملك أنه لا فرار من الحرب قام بعزيمة وجلد واتخذ قرارًا جريئًا.. الهرب إلى المغرب!!

هذه المفاجأة فتت في عضد قادة الجند وقرروا أن يحذو حذو زعيمهم ويفروا من البلد هاربين كفأر يهرب من مصيدة إلى أخرى، ظانين أنهم بهروبهم المؤقت قد نجوا.

دخل الجيش النوراني إلى حصون الأندلس المنيعة دون قتال يُذكر وتفكك الجيش الصليبي وتشرذم كغثاء السيل، وصارت مقتلة عظيمة ومذبحة مروعة في الأندلس قُتل فيها أكثر من مليون مسيحي في ثلاثة أيام.. حتى أن المسيحي كان يقتل زوجته وأبنائه ثم يقتل نفسه خيرًا لهم من التعذيب والاغتصاب ثم القتل بالحرق أو بالسحل.. وانتشرت الأوبئة والأمراض تعصف بمن بقى منهم، ورغم بؤس ما حدث

وقسوته إلا أنه لم يكن إلا مُقبلات بسيطة على مائدة النورانيين الدموية.

فالمذبحة الحقيقية كانت على شاطئ البحر المتوسط عندما قرر من تبقى ومن استطاع النجاة أن يفروا بدينهم وحياتهم إلى المغرب بعيدًا عن هذا البطش الهمجي...

ولكن (تحوت) لم يمهلهم، فباغتهم بجيشه قبل أن تصل السفن وأعمل السيف في الجميع دون أن يراعي طفلًا أو امرأة...

في هذا اليوم تبدل لون البحر الأبيض إلى أحمر قان، وطفت الجثث على الدم المالح حتى وصلت إلى الشاطئ المقابل في المغرب، لو أن أحدًا عبر فوق الجثث لوصل إلى الضفة الأخرى دون أن يبتل.

أما الملك الخائن الذي هرب من القتال وكان سببًا في هلاك قومه، فقتلته زوجته الشابة بالسم وهربت مع خادم له في مثل عمرها محملين بالجواهر والأموال.

لم يتمكن من العبور سوى بضعة آلاف، يجرون خلفهم أذيال العار وبقايا حضارة أذهلت الدنيا، لم يبق منها سوى أطلال يضاجع فوقها النورانيون من سُبي من نسائهم.

ليس لهم مكان يتوجهون إليه الآن...

قرر البعض الترحال نحو بيت لحم حيث وُلد الرب يسوع يتعلقون بأحجار كنيسته المقدسة لعله ينجيهم...

وبعض منهم -وخاصة الشباب- تحركوا صوب (مكة) لينضموا إلى الجيش الإسلامي هناك، فلم يبق جيش غيره يقوى على المقاومة... لذا

فقد بنى لهم المهدي حصناً خارج (مكة) ليتحصنوا فيه ويقاتلوا مع المسلمين.

من بين الذين عبروا (رحمانوف) و(عديّ)، قررا اللحاق بالجيش الإسلامي...

ستكون رحلتهم شاقة تبدأ بالمغرب مروراً بالجزائر وصحراء ليبيا ومصر انتهاءا بمكة، كما أنهم لا يعرفون رد فعل حكومة الماء في مصر... لعلها لا تسمح لهم بالعبور.

أسئلة كثيرة حائرة تصادمت في خلدهم ولكن لا حل آخر.

** ** **

(١٩)

مرت عشرة أشهر منذ تعطلت عجلة الأرض عن الدوران.... اقتربت الشمس من الغروب، يمر أسبوع تلو أسبوع والشمس تقترب من الأرض شبراً فشبر.

أصبح مُلك (تحوت) يبدأ من روسيا شرقًا حتى إسبانيا غربًا، ليست في هذه البلاد ديانة إلا واحدة (النورانية)، ولا تماثيل تُقام إلا ل(تحوت) وحده بعينه العوراء وجبهته الذابلة...

انتشرت فكرة أن (تحوت) هو (المسيخ) كانتشار النار في الهشيم، ولا يزال الناس يدعمون هذه النظرية بعينه الواحدة وجبهته التي رسمت آثار القطب عليها كلمة (كافر) واضحة والنهار السرمدي الذي لا ينتهي ولا يرون له ليل.. كلها علامات ظهوره.

ولكني كنت لا أزال عند رأيي أن هذه النظريات مجرد ادعاءات وأوهام ليبرر الناس فشلهم وضعفهم، كما فعلوا من قبل عندما ادعوا أن التتار هم يأجوج ومأجوج، ولا قِبل لأحد بهم ونسج الناس عنهم الأساطير، وقالوا نحن لا نستطيع قتلهم وقريباً تقوم الساعة، وليس علينا إلا انتظار الموت الذي يعقبه البعث. ولكن سيف الدين قطز أبطل هذه الحجج الواهية والادعاءات المكذوبة عندما قطع رؤوس رسل المغول وعلقها على باب زويلة، ليعلم الناس أنهم بشر لا يختلفون عنهم شيئًا، وأبطلها مجددًا عندما هزمهم شر هزيمة في عين جالوت.

قريباً ستغرب الشمس وينقضي يوم بطول سنة وسيصبح (تحوت) في أضعف حالاته، هذه فرصة المؤمنين ليوحدوا صفوفهم ويستعدوا

لمواجهة حاسمة وعندها سيدركون أن (تحوت) إنسان كأي إنسان يأكل ويشرب.. ويموت...

في ذلك الوقت، تعافت القطة تمامًا من جروحها وعاد إليها جمالها الساحر مجددًا.
استيقظت من نومها وتقلبت في سريرها لدقائق كسلًا، ثم حدقت في سقف الغرفة الذي لم يتغير.. من سعف النخل والحطب...
نهضت بدلال وهي ترتدي العباءة المزركشة بالألوان الفاقعة فجعلتها تبدو كحورية متلألأة من حوريات البحر الأسطورية. لا يهم ما ترتديه، فكل ثوب يلامس جسدها يصير تحفة فنية لا تقدر بثمن. خرجت من غرفتها فوجدت المرأة التي سقتها الماء في أول يوم جالسة وبين ساقيها طست كبير به بعض الملابس تغسلها، فاقتربت منها القطة وقبلتها على رأسها وقالت:
ـ "هل أساعدك يا أمي"؟
فابتسمت المرأة وقالت:
ـ "كلمة أمي تخرج من فمك بعذوبة الماء الصادي، لا يا بنيتي لا أحتاج إلى مساعدتك".
أمسكت بالمرآة تحدق فيها لبعض الوقت وقالت:
ـ "لقد اختفت الجروح تماما، لولاك أنت وعم (جابر) لكنت الآن في عداد الأموات".
ضحكت المرأة بشدة وقالت:

ـ "لقد أصبحت لغتك العربية ممتازة"، ثم شحب لونها فجأة وأشاحت بوجهها وقالت:

ـ "لقد أبدلنا الله عن العقم بفتاة خلوقة حسناء مثلك، ولكنك تصرين على الرحيل".

نهضت القطة برشاقة وقبلتها على خدها وقالت:

ـ "صدقيني يا أمي كنت أتمنى أن أبقى معكم ولكنكم سمعتم عما فعله (تحوت) في أوروبا".

تنهدت المرأة بغضب وقالت:

ـ "وهل لم يبق سواك أنتِ لمحاربته؟!!"

أشاحت القطة بوجهها حزينة، فقالت المرأة:

ـ "سامحيني يا بنيتي ولكن فراقك صعب".

في اليوم التالي كانت القطة ترتدي عباءة سوداء مزدانة بخرز أسود لامع على الصدر ومشقوقة من الجانبين كالتي كانت ترتديها من قبل، وضعت القناع على وجهها فأظلمت المرآة التي تنظر فيها. ودعت (جابر) وزوجته بدموع حارة ورحلت مسرعة، لتلتحق بأسراب الفارين من الأندلس متجهة نحو مكة.

رغم أن (تحوت) لم يبسط نفوذه على إفريقيا بعد، إلا أنه يمطر سواحلها بعشرات الغارات فرضًا للنفوذ وبحثًا عن الفارين من الأندلس. فهو يخشى أن تتزايد أعدادهم ويصبحوا قوة تفكر في مواجهته مجددًا.

اختلطت القطة بثوبها الأسود مع باقي النساء في القافلة دون أن تثير ريبة أحد...

في نفس القافلة وفي مقدمتها كـان (رحمانـوف) يمتطـي جـواده المنهـك الضعيف، لا يعرف أحدهما بوجود الآخر.
لحسن حظهم لم تكن حكومة الماء تمانع من عبورهم، لأنها تستشعر القلق من (تحوت) وتعلم أنه لا يهادن أو يداهن وسيحاربها بكل ما أوتي من قوة للحصول على مصر والسودان.
أخيرا.. بدأ قرص الشمس يلامس الأرض وبشائر الليل تدلج متباطئة...
في الليل ستر وسكون، وفرصـة سـانحة للهـرب مـن بطـش هـذا الرجـل المجنون الذي يدّعي الألوهية.
عاد الشاب المكلف بحراسة ذيـل القافلـة مســرعًا يثـير خلفـه الغبـار، فتوقفت القافلة في فزع...
زعق الشاب بأعلى صوته:
ـ "احذروا.. النورانيون قادمون".
دب الهلع في النفوس وعاد الشباب والرجال من مقدمة القافلة إلى ذيلها استعدادًا للقتال...
عندما استوت الصفوف وبدأ كل واحد يتلو الآيات من كتابه المقدس، سمع (عديّ) صوت شجار بين رجل وامرأة.. الرجل يأمرها بالتراجع والانضمام إلى صفوف النساء والمرأة ترفض بحزم وتقول إنها تجيد القتال وستقاتل معهم...
تأمل (عديّ) الصوت وهو يقول:
ـ " أعرف صاحبة هذا الصوت، هذا الصوت ليس غريبًا عني".

ثم لمعت عيناه.. نعم بالتأكيد إنها هي. جذب (رحمانوف) من ذراعه بقوة حتى كاد يُسقطه على الأرض واقتربا ببطء من المرأة التي كانت توليهما ظهرها...

قال (عديّ):

ـ "ماذا يحدث؟!"

استدارت الفتاة بعدما سمعت الصوت، وسكتت فجأة كأنما التصق لسانها بحلقها.

وجدت (رحمانوف) يقف فاغرًا فمه يحملق في عينيها بعينين مشتاقتين مجمدًا في مكانه.

لا أعرف كيف تمالك نفسه ولم يهب نحوها ليحتضنها ويقبلها... هي أيضا سعادتها لم تكن توصف عندما قابلته.... لسوء حظي.

في هذا الوقت الذي كان (رحمانوف) ينعم فيه بمتعة النظر إلى عينيها الآسرتين، كنت أنا أتقلب في الجحيم الأرضي الذي صنعه ذي العين الواحدة.. هكذا كانوا يدعونه زملائي المساجين.

عندما انفتح باب السجن ودخل الحراس عليّ ليخبروني أن (تحوت) يريد مقابلتي، كان يدور في ذهني سؤال محير لا أجد له إجابة، سؤال أزلي رافق الفلاسفة على اختلاف عصورهم...

"هل أنا على الحق؟ هل أنا على الدرب الصحيح؟"

حملتني إليه طائرة هبطت على ربوة بديعة مفعمة بالخضرة والجمال أقام عليها (تحوت) خيمة جميلة يقود منها الحرب. كانت ملابسي رثة

ورائحتي كخنزير يرقد في الغوط، فأعطاني أحد الجنود ملابس جديدة وبعض الماء لأغتسل...

دخلت على (تحوت) خيمته فوجدته يجلس مع (حاييم) وقد سلمه أذنه يوسوس فيها كيفما شاء...

بمجرد أن دخلت عليه تذكرت (عثمان) ثم القطة وما جرى لهما فاحتقنت عيناي بالدمع ووددت لو أطعنه في قلبه.

قابلني هذا المسخ بابتسامته البلهاء وكأن شيئا لم يكن.

حدجته بنظرة مستحقرة محاولًا اثارة غيظه ولكنه لم يبـالي واحتضـنني بقوة حتى كادت تختلف ضلوعي وقال:

ـ "مرحبا بك يا صـديقي"، وكأنـه لم يـأمر بسـجني وجلـدي وقهـري في سجن الجحيم الذي كنت أسكنه.

قلت له:

ـ "ماذا تريد مني، بعد كل ما حدث؟!!"

قال:

ـ "أريدك أن تتبعني، فقد وعدتك أنك ستكون ساعدي الأيمن إذا فعلت"

فأجبته بحزم إجابة بتارة تنهي الجدل:

ـ "لو أنك الإله الوحيد الذي بيده مقاليد السماء والأرض فأنا أفضل أن أتقلب في الجحيم على أن أسجد لك 'أيها المسخ'، وإن كنت آخر رجل على الأرض فلن أقبل بصداقتك"

وقعت الكلمات على أذنه كقطر يغلي فانتفض غاضبًا وأمسـك بعنقـي وظل يضغط عليها وهو يردد "لماذا؟ لماذا؟!"

تحشرجت أنفاسي وازرق لوني، ثم دفعني على الأرض وتبدلت ملامحه إلى حزن جارف وقال:

ـ "ارحل ولا تريني وجهك مجددًا، واعلم أن هذه آخر فرصة لك.. إذا رأيتك مجددًا سأقتلك بلا رحمة"، وترك الخيمة وخرج.

لا أعرف لماذا شعرت نحوه بالشفقة في هذه اللحظة، لقد كان وحيدًا كذئب مطرود من قطيعه...

تنهد (حاييم) وقال لي:

ـ "أخطأ (تحوت).. وجب عليه أن يقتلك ولكنه لم ولن يفعل، فأنت إحدى نقاط ضعفه"

قلت له:

ـ "ولماذا لم تأمر أنت بقتلي؟!"

سعل بحدة حتى أن رذاذه المقزز أصاب وجهي، وقال بصوت متقطع يمزقه السعال:

ـ "ليس هكذا تسير الأمور، أنت تجهل الكثيييير"

ثم نهض ببطء يتكئ على عصاه وقال:

ـ "من الأفضل لك أن ترحل الآن".

الى أين أذهب؟!! ليس لي في الأرض الآن سوى وجهة واحدة.. مكة، وجهة المساكين والضعفاء هذه الأيام، فخضت رحلتي الشاقة كأي أندلسي يفر بدينه وحياته.

الأهوال التي واجهتني في رحلتي كانت صادمة..

الجثث ملقاة في الشوارع وكأنها دمى مبعثرة لطفل لعب بها ثم تركها ورحل دون أن يرتبها، والمباني متقنة الهندسة والبناء أصبحت قبورًا لأصحابها.

الفظائع التي قابلتها كانت تستدر الدمع من الحجر الصوان، ولكن خاطرًا مر برأسي جعلني أدخل في صدمة وأسير في الشوارع أضحك بعلو صوتي كالمجنون....

تذكرت محاكم التفتيش التي أقامها المسيحيون للمسلمين في الأندلس منذ مئات السنين، نفس وسائل التعذيب تُستخدم ضد أحفادهم الآن، وها هم يغادرون صغارًا أذلاء بنفس الطريقة التي غادر بها المسلمون.. حقًا.. الأيام دول، وكما تدين تدان..

لماذا يكون الاختلاف في الرأي أو العقيدة سبب لسفك الدماء وازهاق أرواح الأبرياء؟! ماذا لو أن البشر توحدوا تحت راية واحدة لخدمة جنسهم مع حفاظ كل واحد منهم على هويته وثقافته؟

أثناء عبوري بالسفينة مضيق جبل طارق وقبل أن تطأ قدمي اليابسة كانت الظلمة قد غطتنا تمامًا ولم يعد للشمس وجود، وخرج القمر في هذه الليلة بهيًا وضاءا بعد غياب طويل، وانتهى يوم من أسوأ أيام الله على بني البشر وكنت أعلم أن أحداث الأيام المقبلة ستكون أشد سوءا واغبرارًا.

** ** **

(٢٠)

وصلت أخيرا قافلة (أحمد) و(عبد الله) إلى مشارف سيناء، بعد رحلة شاقة لا تختلف في غرابتها عن رحلتهم السابقة صوب مكة.

قابلوا أثناء رحلة عودتهم إلى سيناء قبيلة في فلسطين تسجد لتمثال مصنوع من الذهب لرجل أعور يدعون أنه الله قد نزل على الأرض.

أخبر (عبد الله) أفراد القافلة أن هذا الشخص الذي يدعي الألوهية هو المسيخ الدجال، وسيبقى على الأرض لفتنة أهلها لمدة أربعين يومًا.. يوم كسنة ويوم كشهر ثم يوم كأسبوع وباقي الأيام كأيامنا، سيجول فيها الأرض من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، ولن تترك فتنته صغيراَ أو كبيراَ حتى يقع فيها أو يصبر فينجيه الله منها.

ثم أطلعهم على وجهتهم أخيراَ.. إنه جبل الطور في سيناء، سيقضون حوله ما بقي من عمر الدجال يسجدون ويبتهلون إلى الله ليرفع عنهم هذا البلاء المبين.

لدى وصولهم إلى جبل الطور كان القمر قد اعتدل في السماء يرسل سيلًا من الضوء الهادئ...

وجدوا مجموعة كبيرة من الرهبان المسيحيين عند الجبل، فسألهم (أحمد):

ـ "ما الذي جاء بكم إلى هذا المكان؟

أخبره أحدهم أنهم رأوا جميعًا رؤيا واحدة في نفس الوقت.. أن اليسوع جاءهم وطلب منهم الاعتكاف عند جبل الطور إلى أن يُزال عنهم البلاء الذي هم فيه.

*****

الليل هو عدو (تحوت) الأكبر، لذلك قرر التوجه إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية حيث الشمس تشرق هناك عفية، وليصب العذاب على رؤوس اليابانيين والصينيين والكوريتين ثم يتبعهم بسيطرة تامة على شرق آسيا، وترك جيشًا صغيراً يعبر إلى المغرب ويلتهم الصحراء قطعة بقطعة ويضيفها إلى ملك النورانيين، وبذلك يلتقي الجيشان أخيراً عند (مكة) حيث تكون المعركة الحاسمة التي بعدها يتوحد العالم أخيراً تحت راية واحدة، دين واحد وثقافة واحدة فُرضت عليهم بالحديد والنار.

عندما وصلتُ إلى مصر توجهت مباشرة إلى الجيزة.. المكان الذي بدأ منه كل شيء، والمكان الذي انتهت فيه آمال وطموحات (عثمان) بعالم مثالي وأمة متقدمة.
وقفت على التل الذي تأملت منه الساعة في أول يوم لي.. هرمت الأهرامات وشاخت وراح رونقها وجمالها، والساعة بماسها وعقيقها تبددت إلى ذرات من الكربون اختلطت بالرمال.. شعرت أثناء وقوفي بالهم والضيق كضبع يطبق فكيه القويين على قلبي ويعتصره.
تجولت في الصحراء المظلمة الموحشة لأيام أبحث عن التل الذي سقطت عنده قطتي، لعلي أجد جثتها بمعجزة ما فأقبلها وأدفنها بيدي فأكرم موتها، ولكني لم أجد شيئاً...
اذن سأتوجه إلى مكة، لم يبق لي شيء جميل أتذكره في هذا المكان.
لا أعرف إن كان (تحوت) مجرد حاكم ظالم كفرعون ومن قبله النمرود أم أنه حقًا المسيخ الدجال. لم أعد أبالي، فالموت واحد وإن تعددت

أشكاله وأسبابه، لا فرق إن كنت سأموت على يدي ملك مستبد أو أعظم فتنة تصيب أهل الأرض.. كل ما أريده أن أستريح من هذه الدنيا وعنائها.. أريد أن أموت، لا شيء في هذه الحياة يستحق العيش من أجله، ولكني لن أسمح لنفسي بالموت هباءا.. سأظل أقاتل دفاعًا عن ما أؤمن به حتى أهلك في سبيله.

مكة!!.. ريحانة القلب ومطلب النفس.. مقصد الهائمين ونبراس العقول، كلما اقتربت منها كلما شعرت براحة في النفس وسكينة في القلب، لهيب صحرائها ينزل على البدن بردًا وسلامًا، وظلمة الصحراء من حولها تراها العينان بهجة وضياءا.

وصلت بعد رحلة شاقة إلى مكة.. وها أنا أقف أمام أسوارها العالية الصلبة.. أرى المشاعل على رأس السور كشهب تتجول ببطء في السماء تطرد الظلمة والشر عن المدينة المقدسة والحراس يذهبون ويجيئون في انضباط وحزم.

لا أعرف أن المرأة التي أعشقها تسكن هذه الجدران، ولا أعرف أني أبعد عنها بضع خطوات.

** ** **

(٢١)

دخلت مع الداخلين بعد تفتيش متقن وصارم.. عبرت من باب صغير ضيق مفتوح في البوابة الكبيرة للحصن، فمكة صارت حصنًا كبيرًا تحيطها الجدران من جنباتها الأربعة...

لم يتوان أميرها للحظة في التجهيز والاستعداد لليوم الموعود.

رأيت أعدادًا كبيرة من الجنود مدججين بالسلاح...

ولكني أيضا رأيت جيش (تحوت) الذي يمتلك أقوى الأسلحة على وجه الأرض.. كما أن (تحوت) نفسه جيش لا يقهر.

سرت طويلًا بين جموع اللاجئين حتى وجدتني أقف أمام مئات الخيام مليئة بالاطفال والنساء والشيوخ ورجال من أصحاب العوائل يهتمون بأبنائهم. ولكني ليس لي عائلة وليس لي صديق هنا، فقررت أن أتطوع للجهاد وأكون في صفوف المحاربين.

مر ثلاثة أشهر تقريبا منذ وصولي ولا شيء جديد يحدث.. نتدرب بجد لمدة خمس ساعات متتاليات يتبعها راحة قصيرة، ثم عمل جاد على حفر الخنادق وبناء السواتر الترابية وتعلية السور.

تأتينا الأخبار تباعا مع اشتداد ظلمة الليل مؤذنة بقدوم الفجر.

جيش النورانيين الذي تعداده لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل عبر إلى المغرب واستولى عليها دون مقاومة تذكر ثم اتجه إلى مدينة تونس وأقام فيها مذبحة عظيمة كالتي فعلها من قبل في الأندلس.. فقط لأنها قاومتهم لثلاثة أيام، فكان هذا مصيرهم.

انضم إلى جيش (تحوت) ما يقرب من سبعة آلاف مقاتل من بلاد المغرب بعدما سجدوا لتمثال (تحوت) وأقروا له بالولاء.

أما (تحوت) نفسه قاد جيشه الضخم بفيالقه وكتائبه.. يُسقط مدينة تلو الأخرى في الصين، وانضم إليه الكثير حتى أن تعداد جيشه جاوز المليونين، فأرسل جيشًا تعداده مائة ألف مقاتل إلى جيش النورانيين المتمركز في صحراء ليبيا استعدادًا للدخول في معركة حاسمة مع جيش حكومة الماء التي قد أعدت العدة لمعركة فاصلة تدافع فيها عن كنزها الذي لا يقدر بثمن.. نهر النيل.. أو ما بقي منه.

في إحدى نوباتي للحراسة، باغتني الندى الذي يأتي في آخر الليل بمثابة رسالة جلية يرسلها الصباح، معلنًا وصول موكب الشمس العظيم...

لم أتخيل يوما أن منظر الشروق البهيج سيأتي علي ومن حولي من الجنود بهذا القدر من الكآبة والضيق وكأن أشعة الشمس التي تنسرب من بين قمم جبال (مكة) رماح مسمومة تخترق الأفئدة.

سمعت مناديًا يطلب من كل من واجه النورانيين مواجهة مباشرة أن يقف في هذا الصف...

يبدو أن القادة يريدون أن يطلعوا على أكبر قدر من المعلومات عن (تحوت) وجنده. وهل هناك من هو أفضل مني ليخبرهم؟!

وقفت في قطار طويل من البشر، يسير ببطء نحو القلعة الرئيسية. بعدما دخلت قابلت أجمل مخلوق صاغته يد الله على وجه الأرض.. عينان آسرتان، صوت عذب يحليه بحة خفيفة، وجسد رشيق كقطة تتقافز بين الأسطح.. معشوقتي.. معزوفتي التي لم تصغ مثلها يدا بيتهوفن.. انها حية.. أنا حي.

كيف لرجل أن يعشق امرأة من عينيها وصوتها فقط؟!!!

هل الحب أعمى إلى هذا الحد!!

أم أنه بصير لدرجة أنه يدرك قيمة الجمال ويقدره حتى وان كان بينه وبينه حجاب؟!!

أجمل ما في الحب أنه لا يبالي.. بأي شيء.. فقط بالمحبوب.

لعل هذا السبب الذي جعلني لا أرى في البداية التمثال الفني الرائع المنصوب أمامها الذي يشبه (رحمانوف).. يالحماقتي إنه هو بالفعل ولكنه مجمد في مكانه هائم في المجرات المتلألأة في عينيها.

شعرت بذراعين قويين يأتيان من خلفي ويلتفان حول صدري بقوة، نظرت فيهما.. هذه الغابة النابتة على هاتين اليدين لا تنبتان إلا لقرد أو صديقي (عديّ).

استدرت فاحتضنني بقوة ثم جذبني بنفس الطريقة التي جذب بها (رحمانوف) من قبل نحو القطة، فاستدارت بسرعة ولكن الوقت كان يمر بطيئا رتيبًا.. أخيراً رأيت عينيها مجددًا.. كانتا ترقصان فرحًا لرؤيتي، يمكنني أن أرى فيهما انعكاسًا صافيًا لوجهي الذي عادت له الحياة.

تشبثت الكلمات في حلقي فدفعتها بقوة فتمسكت باللهاة، فتلعثمت وسعلت ورشح العرق من جبيني ثم لم أتكلم.

فبادرتني هي:

ـ "أنا سعيدة حقا لرؤيتك"، قالتها بصوت فيه حنو أم على طفلها.

ـ"أنت لم تموتي!!!"، هذه كانت اجابتي.. يا لي من أحمق، هذا ما نضج أخيرا في قدر قلبي الذي يغلي عشقًا وهيامًا.

تحشر (رحمانوف) بيني وبينها بذراعه مفتول العضلات يمده نحوي مصافحًا...

صافحته وأنا لا أراه.

أخذ (عديّ) جسدي بعيدًا عنها، ولكـن قلبـي لا يـزال مكانـه.. كلمنـي كثيراً ولكني لا أسمعه...
ولكنه جذب وجهي نحوه وقال:
ـ"عليك أن تخطو خطوة للأمام قبل فوات الأوان، (رحمانوف) سيتقدم لها قريبا للزواج".
رغم أني أتوقع هذا منذ فترة طويلة إلا أن الكلمات زلزلت كياني. قال لي مشجعًا:
ـ "لقد رأيت كيف قابلت (رحمانوف) وكيف قابلتك، لقد كانت سعادتها لا توصف عندما رأتك".
بعد برهة انسللت بعيدًا وانزويت في ركن أراقبهم من بعيد.. سارا معًا ببطء والجدية بادية على وجهيهما، حركات يديه أخبرتني أنه يفاتحها في أمر الزواج، لا أستطيع أن أرى وجهها. دار بينهما حوار طويل، وابتعدا كثيراً عني. أشحت برأسي مدعيًا اللا مبالاة وجلست على الأرض مسندًا ظهري إلى سور الحصن، وقلت لنفسي مواسيًا "سواء تزوجتها أو لا، سنهلك كلنا قريبًا على يدي (تحوت).. لا أمل لنا في النجاة".
مرت عدة دقائق، بعدها وجدت (رحمانوف) يمر من أمامي غاضبًا ثـم وقف قبالتي وحدجني بنظرة يختلط فيها الغضب بـالازدراء ثـم أشـاح بوجهه وسار مبتعدًا دون أن ينبس ببنت شفة...
بعدها وجدت القطة تقف وحدها تحـدق في أشـعة الشـمس الخافتـة التي يتنفسها الصباح.

قمت من جلستي التي طالت وأنا أشجع نفسـي وأمنيها بعـدما رأيـت (رحمانوف) يولي محزونًا...

وقفت بجانبها.. شعرت بي ولكنها لم تلتفت إليّ، ابتلعـت ريقـي وقلـت لها:

ـ "ما اسمك؟"

التفتت إليّ مندهشة، فلم تكن تتوقع هذا السؤال...

حاولت أن تراوغني كعادتها، فقلت لها بحزم:

ـ "دون مراوغة.. ما اسمك؟"

أجابتني بصوت متهدج ليس من عادتها:

ـ" اسمي (زهرة الدين)، جـدي هـو الـذي أسـماني"، ثـم أردفـت "لقـد طلب (رحمانوف) الزواج مني"...

احتقن وجهي وهرب اللعاب من لساني...

أخيرا تكلمت فقلت لها بغضب:

ـ "أتمنى لكما حياة سعيدة.. هو يستحقك".

نظرت إليّ بغضب وقالت:

ـ "هذا كل ما ترغب في قوله؟!!"

هربت من عيني دمعة وقلت لها بحزم:

ـ "نعم".

تنهدت بغضب وضربت الأرض بقدمها ورحلت.

أخذت أراقبها وهي تهرول مبتعدة وأنا أقول في نفسي.. "النسـااء.. سر عظيم يعصى على فهمي وادراكي".

لم تمر دقيقة حتى رأيت (عديّ) يقترب مني ويبتسم ابتسامة مقتضبة وقال لي:
ـ "هل تحدثت اليها؟"
أشحت برأسي، فدار حولي حتى أصبح قبالة وجهي مجددًا وقال:
ـ "يا أحمق، لقد رفضت الزواج من (رحمانوف) وعندما ضغط عليها قالت له إنها تحب شخصًا آخر".
نزلت هذه الكلمات على مسامعي كدلو من الثلج يُصب على رأسي الساخن...
لم أبق لأسمع باقي حديث (عديّ) ولكني ركضت باحثًا عنها كالمجنون.
القلعة تشبه المتاهة.. أسوارها عالية متداخلة، البحث فيها عن شخص أشبه ببحث الفأر في المتاهة عن قطعة الجبن.
رفعت رأسي فرأيتها واقفة على أحد أسوار الحصن تراقب السحاب المنثور في الفضاء.
صعدت اليها ووقفت بجانبها كوقفتي السابقة، لم تنظر نحوي كما فعلت من قبل...
تنهدت ثم قلت لها:
ـ "لماذا لم تخبريني أنك رفضت الزواج من (رحمانوف)؟"
ـ "أنت لم تعطني فرصة لأكمل كلامي.. أحمق".
ـ "بماذا وصفتني؟!!!"
ـ "نعم.. أنت أحمق".
ـ "لماذا رفضت الزواج منه، إنه شاب تتمناه أي امرأة".
قالت بغضب:

ـ "وهل كنت تريدني أن أتزوجه؟!"
ـ "لا.. أقصد نعم.. أقصد أنت حرة فهي حياتك.. إنه قرارك".
ـ "أف.. بالطبع إنه قراري"
وقفت أتلجلج ثم سحبت إلى صدري نفسًا عميقًا وتراجعت خطوة إلى الخلف وقلت.. "أنا..."
نظـرت إليّ بـاهتمام وترقـب وقطبـت حاجبيهـا متشـوقة لمـا أقولـه وتراجعت خطوة للخلف...
قلت "أنا.. أنا.. أنا."، ثم استدرت "أحمق بالفعل"، ورحلت. سمعت صوت قدمها تصدم الأرض مجددًا حتى أني خشيت أن يسقط بنا السور ثم زفرت زفرة كصافرة القطار وقالت:
ـ "أنت تحبني.. أليس هذا ما تود أن تقوله؟!!"
التفتت اليها وقد احمر وجهي وقلت لها:
ـ "نعم أحبك، أحبك.. أحبك".
ـ "توقف، توقف.. في البداية لا تقوى على قولها والآن تغنيها؟!"
ـ "أحبك يا (زهرة)".
ـ "أعلم.. أنا أيضا أحبك.. أيها الأحمق".
ـ "لماذا تنعتيني بالأحمـ.... تحبيني، هل حقا تحبيني؟!"
ـ "نعم.. أنا أحبك يا (يوسف)"
وقفت مصدومًا، سعيدًا، راضيًا.. أريد أن أجلس وفي نفس الوقت أريـد أن أقفز.. ثم تركتها وابتعدت.. أريد أن أصرخ من فرط سعادتي.
ـ"انتظر"، أتـاني صـوتها رقيقًـا هادئـا، فعـدت اليهـا كطفـل نحـو عربـة الحلوى.

سارت وأنا أسير بجانبها لا أعرف ما أقول.. أنـا أبكـم إذا كـان الحـديث مع النساء، ولكنها لم تكن تبالي.

سألتها:

ـ "لماذا اخترتني أنا وليس (رحمانوف)؟"

قالت:

ـ "لو كان الأمر بالحساب والمنطق لكان (رحمانوف) بالطبع هو خياري، ولكن ماذا أفعل في قلبي؟ ليس لي حكم عليه".

نظرت أمامنا ثم التفتت إلى الخلف وقالت "لا أحد هنا"، ثم أسندت ظهرها إلى السور بين عمودين فاختفت بينهما ثم قالت:

ـ "اقترب أريد أن أريك شيئا".

خفق قلبي واضطرب بـدني ورشـح العـرق عـن جبينـي، ازدردت لعـابي وقلت لها:

ـ "ماذا ستريني؟!"

ـ "اقترب أيها الأحمق".

اقتربت وأنا أجتهد ألا يسيل لعابي...

نزعت برفق القناع الذي يغطي وجهها فأشرقت الشمس قبـل موعـدها ورأيت أجمـل امـرأة عـلى هـذه الأرض.. الحاجبـان فـاحمان عريضـان مصقولان ومنتظمان وكـأنهما مرسـومان بريشـة فنـان، فـوق عينـين لا أقـوى عـلى وصـف جمالهـما، الأنـف ترتفـع ذؤابتهـا فتعطـي وجههـا مشاغبة ومرح يعشقه الرجل في المرأة، وشفاهها التفاحية فيها خضـوع وانكسار يلهب رجولة الرجل ويثير في قلبه الشهوة..

فهـي مشـاغبة وصـاخبة في أنفهـا.. ومسـتكينة ومستسـلمة في شـفتيها الجميلتين، فكأن الأنف تقول الجمال يكـون هكـذا والشـفاه تقـول بـل هكذا فارتضى كل منهما مكانه ونتج عن هذا الجدل انفراجة يسيرة بين شفتيها يظهر بينهما صف لؤلؤ منظوم، انفراجة تثـير الشـبق في الشـيخ الهرم. وكأن كل هذا الجمال لا يكفي فصـنع خـداها غمازتـين عميقتـين كدوامتين يتوه المرء فيهما.

وقفت فاغرا فمي أحملق فيها دون أن أقدر على منع عيني عن النظـر اليها.

قالت:

ـ "كيف سنتزوج دون أن ترى وجهي؟!"

قلت لها دون أن أحول عيني عنها:

ـ "نتزوج؟!"

قالت:

ـ "لو انتظرتك لتقولها فسينقضي الدهر دون أن تنطقها أيها الأحمق"

أجمل كلمة أحمق سمعتها في حياتي!!!

قبل أن تبدأ مراسم الزواج وجب أن أطلع الأمير، أو المهدي، على كل ما أعرفه عن (تحوت) وصديقه (حاييم).. كانت معلوماتي الأكثر قيمة بين كل من أدلوا بشهاداتهم لذلك كافأني الأمير بغرفة أثيرة في القلعة الرئيسية أدخل فيها على زهرتي الفواحة.

أتت اللحظة الموعودة بعد انتظار طويـل.. علـت الأناشـيد والزغاريـد وكانت مناسبة جيدة ليرفه الجنود عن أنفسهم وينسوا ولو قليلًا الموت المقبل نحوهم.

قضيت أجمل ساعة منذ ولدتني أمي أنهل من عسلها ولا أشبع.. ليت الحياة تتوقف عند تلك اللحظة...
ظللنا في هذا الجو الحميمي حتى غلبنا النعاس فوضعت رأسها على صدري وأخذت أداعب بأصابعي شعرها الأسود الناعم.. ونمنا.
استيقظت ولكنى لم أجرؤ على فتح عيني.. أخشى أن يكون حلمًا جميلًا فأفتح عيني فاستيقظ ويموت الحلم، مددت يدي برفق أتحسسها فشعرت بجسدها الغض.. ففتحت عيني وجدتها نائمة كطفلة، لكن القدر لم يمهلني المزيد من الوقت لأستمتع بمراقبتها تتقلب في نومها غنجًا...
فقد دوت أجهزة الانذار، وانطلق الجنود كلٌ إلى سلاحه.
ساعدتها على ارتداء زيها المميز ولكني لم أغلق سحاب ثوبها، فلم أستطع مقاومة آثار الجروح المحفورة في ظهرها نتيجة السقوط القاسي على رمال الجيزة. كانت هذه الخدوش أشبه برتوش تضاف إلى لوحة فنية جميلة فتزداد قيمتها ويعلو شأنها.. ولكني أشفقت عليها فحاولت أن أدغدغها لأرفه عنها...
ضحكت وهي تهرب مني بعيدًا وقالت:
ـ "لا يوجد وقت لهذا".
عندما خرجنا سألت أحد الجنود:
ـ "ما الذي يحدث؟!"
أخبرني أن العيون التي أرسلها المهدي عادت وأعلمته أن طلائع جيش المسيخ تقترب بحشود كبيرة.

سرت بجانب قطتي.. زهرتي.. في الرواق الحجري الطويل المؤدي إلى ساحة القلعة مشغول البال...

هل هذا الأمير هو المهدي حقا؟!! هل (تحوت) هو المسيخ الدجال؟!!

نظرت إلي (زهرة الدين) فوجدتها أيضًا مهمومة الفكر. حاولت أن أكلمها لأروح عنها، ولكنها فجأة جذبتني من يدي نحو ركن مظلم في البهو ودفعتني نحو الحائط وقفزت برشاقة نحوي فتعلقت بيديها في عنقي ولفت ساقيها حول خصري كطفلة تتعلق بوالدها والتصقت بي حتى صرنا واحدا...

وأنا أقف مذهولًا أنظر حولي خشية أن يقتحم علينا أحد الجنود خلوتنا التي أتمنى ألا تنتهي، نظرت إلى وجهها فوجدته مغمورًا بالدمع. حاولت أن أكلمها لأسألها عن سبب بكائها، ولكنها لم تمهلني وأطبقت كفيها على وجهي وأرخت جبهتها على جبهتي حتى شعرت بأنفاسها الحارة ثم قالت:

ـ "الحرب تقترب وربما لا تتاح لي فرصة مجددًا لأحتضنك.. أحبك".

فجأة صار عندي ما أخسره، أصبح الجبن والهرب أمرًا واردًا الآن لأعيش من أجلها ومن أجل أن أنظر في عينيها ليوم آخر...

هذا عن نفسي، ولكن ماذا عنها؟!

انها تسير بإصرار لا تهاب الموت وستقاتل حتى النهاية، أخشى أن تفارقني.. لعن الله الحرب ولعن من أثار الفتن لتشب نيرانها، يتقاتلون على لعاعة.

حركة الشمس تنذر بيوم طوله أقل مما قبله الذي استمر سنة تقريبًا. يقول الشيخ وأهل العلم إن اليوم التالي سيستمر شهراً فقط، أي أن

قوة (تحوت) ستقل مع مرور الوقت لذلك فهو سيحرص على الهجوم في أقرب فرصة.
استلمت موقعي للحراسة في أعلى سور الحصن المطل على الصحراء المتلاطمة وغابت عن ناظري القطة...
اقترب اللقاء المحتوم وفي أي لحظة ستظهر بشائر جيش (تحوت) الجرارة...
ولكن ماذا حدث لحكومة الماء القوية؟!!
سألت أحد رفاقي في الحراسة ممن يهتمون بالأخبار وتواترها فأخبرني بالقصة العجيبة التي حدثت.. اقترب جيش (تحوت) من القاهرة في مقاومة لا تُذكر لأن حكومة الماء جمعت كل عناصرها كما أنها أجبرت بعض المدنيين علي القتال إلى جانبها واستعدت لمعركة واحدة فاصلة على حدود القاهرة...
جاء (تحوت) على رأس جزء من جيشه الذي يبلغ ثلاثة أضعاف جيش حكومة الماء، ولكن المفاجأة أن (تحوت) طلب من جنوده التراجع ليحاربهم وحده فكان في كل خطوة يقترب فيها من الجيش ترعد السماء وتبرق ثم بدأت تنزل الصواعق على رؤوس قادة الجيش فتحرقهم الواحد تلو الآخر، ثم هبت ريح صرصر عاتية تنزع الناس عن الأرض وتقذفهم بعيدًا كأعواد الحطب، ثم قال بصوت مفزع لم يسمعه بشري من قبل "أنا الملك ولا ملك غيري، السلام والرضا على من اتبعني، والعقاب والنازلة على من عصى أمري. اسجد لي، أجعل الأرض لك طائعة، وأخرج لك منها الكنوز الضائعة، أو اعصني واهرب بعيدًا ولن تسلم حينها من سيفي أو رمحي". فكانت المفاجأة حيث بدأ

الجنود يسجدون تباعًا، وانتصر (تحوت) بغير قتال. ثم اتجه إلى مجرى النيل الجاف ووقف فيه وأمر بجمع كل أهل المدينة حول أطلال النيل والناس يشاهدون غير مدركين لما سيحدث، ثم وضع يده على الأرض وقال بصوت سمعه كل الناس"أخرجي كنوزك"، فبدأت الأرض ترتج ووُلد شق صغير في الأرض من تحت يده ظل يكبر ويبتعد حتى وصل السدود التي تحجب الماء الواحد تلو الآخر فتتدمر... بعد لحظات رأى الناس جبل الماء يقبل هادرًا حتى ملأ مجراه القديم وطغى، فانتفض الناس فرحًا وسجدوا جميعًا لإلههم الجديد الماشي على الماء. ثم أشار إلى شاطئّي النيل وقال لهما "أخرجا كنوزكما"، فنبت الزرع سريعًا حول الماء وظل يعلو ويعلو حتى أثمر.

إذن لم يبق ل(تحوت) إلا أن يبيد المقاومة في (مكة) ويصير له مُلك الأرض كلها بسهولها وجبالها، بريفها وحضرها.

في هذا اليوم قابلت الشاب الذي أنقذ (أحمد) من براثن زعيم العصابة الهمجي، الذراع الأيمن للمهدي.. اسمه (ياسر)، شاب وسيم قوي يبث الثقة في من حوله، إذا تحدثت إليه تشعر بيقين مفرط بالنصر ولا تجد في نفسه ذرة قلق، يعطي الأوامر بحزم ويتنقل بين الجنود بابتسامة لا تفارقه وتواضع يزيده مهابة وبأسًا.

طلب مني أن أطلعه على كل المعلومات التي أعرفها عن (تحوت) مجددًا، فلما وجدني كنت بهذا القرب من (تحوت) طلب مني أن أنضم إلى الفرقة التي يقودها ليستفيد من خبرتي ولكني رفضت فأصر هو على ضمي إليه ولكني أيضًا أصررت على رفض هذا الطلب، فأنا لا

أريد أن أبتعد عن قطتي. أريد أن أظل قريبًا منها أحميها بقدر ما أستطيع.
مع انتصاف الشمس في كبد السماء وصلت أول فرقة من الجيش النوراني...
استقرت بسرعة ونصبت الخيام.. يبدو أنهم لا ينوون القتال ولكنها حرب نفسية لاستعراض العضلات وبث القلق في نفوسنا، ولكنا كنا في معسكر إيماني ضخم نصلي كل يوم ووجوهنا نحو الكعبة، وحتى المسيحيين الذين انضموا إلينا في الحصن خارج (مكة) كانوا يقضون اليوم في الصلاة...
توحد الجميع تحت راية واحدة، قضية واحدة يتمنون أن تنزل معجزة من السماء تنقذهم من الفتنة المقبلة عليهم كقطع الليل المظلم.
اعتمد (تحوت) سياسة النفس الطويل والحرب النفسية على غير ما توقعنا. فدفع بجحافله كتيبة تلو الأخرى.. كل فيلق يصل له علم مميز وزي مختلف عن سابقه حتى امتلأت عيوننا بالألوان المزركشة لجيش (تحوت) الذي يحجب لون الرمال الأصفر. لم يكن أمام المهدي سوى اخراج جزء من جيش (مكة) مع بعض الاستعراض ليحافظ على الروح المعنوية لجنوده، وكان ذكيًا بحق عندما رأينا البوابة الكبيرة تُفتح ويخرج منها كتيبتان.. الأولى يقودها (ياسر) الشاب الفذ ويرتدي وجنوده زياً أسود مهيباً ويمسكون بأيديهم أسلحة ليزرية تشبه التي كانت مع الحراس في الجيزة... إذن هم يملكون أقوى سلاح للفرد المقاتل على وجه الأرض. والكتيبة الأخرى يقودها (رحمانوف)، ومن

غيره أنسب لمثل هذا المنصب الدقيق.. كتيبته لونها أحمر وعلمها ذهبي باهر للأبصار فلا تستطيع تمييز ملامحه بدقة...

رغم الخروج الاستعراضي لهاتين الكتيبتين إلا أن هذا لم يكن كافيًا، لذلك كانت النشوة الحقيقية عندما شعرنا بالأرض ترتج تحت أقدامنا فوجدنا عشرات الدبابات والمجنزرات تخرج من الحصن... لا نعرف أين كان يخفيها المهدي ومتى خرجت، ثم زمجرت خمس مروحيات فوق رؤوسنا تزيدنا قوة وصلابة وتبث الفزع في نفوس أعدائنا...

أنا موقن الآن أن المهدي أعد بصدق ما استطاع من قوة لهذا اليوم الموعود.

تقهقرت جنود (تحوت) شيئا يسيراً انتظارًا للدعم، ثم أقبل الليل مجددًا.

تعلقنا بالأمل الكاذب وبقوة بعض المجنزرات والمروحيات وتناسينا القوة الحقيقية ل(تحوت) وجيشه.

مع بداية اليوم التالي صمت آذاننا أصوات أبواق جيش (تحوت) معلنة وصول الزعيم على رأس جيش نرى أوله ولكننا لا نرى له آخر، ثم أقبلت مدرعاته ومجنزراته في موكب مهيب.. وبدأت المعركة.

أطلقت مدافع النورانيين قذائفهم نحونا فتصدع جزء من السور ثم اقتربت مدرعاتهم ببطء كالتمساح يتربص بفريسته...

والعجيب أن المهدي أمر جنوده أن يثبتوا في أماكنهم...

اقتربوا كثيراً حتى أن مقدمة جيشنا بدأت تكون في مرماهم وتتلقى الضربات الموجعة، وفي هذه اللحظة بالذات صُعقت آذاننا وانبطح

جنود الطرفين على الأرض من صوت ثلاث طـائرات حربيـة ظهـرن مـن العدم!!!
من أين جاءت هذه الطائرات؟! وهل لا يزال منها ما يعمل؟!
صبت قذائفها عذابًا على جيش (تحوت) الذي تراجع في ذعر.
ولكن لم تكتمل فرحتنا بالنصر عندما رأينا (تحوت) يشير باصبعه إلى السماء فتنزل ثلاث صواعق أحرقت الطائرات في الجو وتلاشوا كفراشات في النار...
سمعت رجلًا يقف بالقرب مني يقول "كيف لنا أن نقاتـل رجـلًا ينـزل الصواعق من السحب كما ينزل الماء"؟
توقفت الحرب لبرهة.. كل فريق يقيِّم خسائره ويعيد بناء خططه، ثم تقدمت مجددًا دفعة جديدة من الدبابات النورانية، فتقدمت لها كتيبة مدرعات من طرفنا واستمر القتال إلى ما يقرب من ساعة.. اضطرت بعدها كتيبتنا للتراجع بعد أن تكبدت خسائر كبيرة، واغتنم النورانيون الفرصة وتقدموا بقوة مضاعفة نحونا...
انزوت جيوشنا وتقهقرت حتى لا صقت السور ونيران المدافع مصـبوبة فوق رؤوسهم صبًا.
لا أعرف لماذا لا يأخذ المهدي بزمام المبادرة ويأمر جنوده بالتقدم بـدلًا من تركهم محصورين بين العدو وجدار الحصن كفأر في مصيدة...
قطع حبل أفكاري صوت دوي مرعب...
تفجرت الأرض مـن تحـت أقـدام الكتائـب النورانيـة المتقدمـة وشـبت النيران في مدرعاتهم.

لقـد كانـت خدعـة مدروسـة.. اسـتدراجهم نحونـا بيـنما كانـت الأرض ملغمة بمئات القنابل التي انفجرت في الوقت المناسب.
لم يكن أمامهم إلا الانسحاب مفزوعين من هول الصدمة، وتقدم جيشنا إلى موقعه مجددًا دون خسائر تُذكر، وظهر المهدي فوق أعلى قمة للحصن وخطب في الجنود خطبة عصماء حثهم فيها على القتال وبشرهم بالنصر حتى ارتفعت معنويات الجنود إلى أقصى حد.
وفي الليـل بـدأ جيشـنا لأول مـرة الهجـوم.. فبـاغتهم بعمليـة نوعيـة وكبدهم خسائر فادحة...
ولكن في صباح اليوم التالي ظهر أخيراً (تحوت) يقف في مقدمة الجيش وبجواره (حاييم) يتكئ على عصاه...
بمجرد أن رأيتهم علمت أن المعركة الحقيقية تبدأ الآن.
أمر المهدي كتيبتي (ياسر) و(رحمانوف) بالتقدم والاستعداد للقتال.
طال الانتظار ولم يبادر أحد بالهجوم والجنود عيونهم جاحظة مصوبة نحو (تحوت) الذي ترعبهم حتى اشارة من يده.. فالقصص والأساطير المنسوجة عنه كفيلة بشيب الصبي.
أخيراً.. جـاء الأمـر في جهـاز الاتصـال اللاسـلكي ل(يـاسر) و(رحمانـوف) بالهجوم لأنهم إذا انتظروا أكثر من ذلك سيتخاذل الجنود ويدب القلق في نفوسهم...
تلقى (ياسر) الأمر ولكنه ظل مجمدًا في مكانه ولم يعط الأمـر لجنـوده بالهجوم.
خاطبه (رحمانوف) على جهاز الاتصال ولكنه لم يجب...

إنه أمر يدعو إلى القلق، فقرر أن يترك قيادة فرقته ويتوجه إليه ليعرف منه سبب احجامه عن الهجوم، وكانت إجابة (ياسر) غريبة، فقد قال له:

ـ" أنا أنتظر الإشارة لأبدأ".

تعجب (رحمانوف) وقال:

ـ "نحن لم نتفق على إشارة".

ولكن (ياسر) الذي بددت ابتسامته وارتسمت الجدية ممزوجة بالخوف على وجهه أشار بإصبعه نحو (تحوت) وقال لرحمانوف:

ـ"انظر".

رأى (تحوت) يتقدم وحده بثقة حتى ابتعد بضعة أمتار عن مقدمة جيشه، ثم رفع قدمه اليمنى وهوى بها بكل قوة ضاربًا الأرض، فارتجت وتصدعت وكأن زلزالًا أصابهم، وهوى بعض الجنود على الأرض من هول الصدمة، وزاد الشق في السور كُبرًا واتساعًا. نظر (ياسر) إلى (رحمانوف) وهو يبتسم ثم قال:

ـ "هذه كانت الإشارة".

تعجب (رحمانوف) وقال:

ـ "أي إشـــا...".

لم يُنه جملته حينما شعر بألم فظيع في معدته وسائل ساخن ينسكب منها على ساقيه. جحظت عيناه وحدق في (ياسر) ثم حرك عينيه ببطء نحو بطنه فرأى خنجرًا في يد (ياسر) قد اخترق معدته...

نظر مجددًا إلى (ياسر) والألم يفتك به وهو يقول:

ـ "لماذا؟!!! لماذا تفعل هذا؟!!"

أجابه (ياسر) بابتسامته التـي يلاحـظ فيهـا لأول مـرة هـذا القـدر مـن المكر والخبث:

ـ "أنا لم أعتد الخسارة.. منذ أن كنت طفلًا وأنا أربح، لن أنضم الآن إلى فئة خاسرة".

نظر (رحمانوف) حوله فوجـد كتيبـة (يـاسر) السـوداء تسـتبيح كتيبتـه ورأى الطعن يأتي من الرفيق قبل العدو.

آخـر كلمـة نطـق بهـا (رحمانـوف) قبـل أن يجـز (يـاسر) عنقـه كلمـة "خااااائن". صرخ بها بأعلى صوته ثم تحشـرجت أنفاسـه وهـوى عـلى الأرض يرتعد كطائر ذبيح ورجله ترفس الأرض ونـافورة الـدماء الذكيـة كونت بركة صغيرة انغمس فيها رأسه.

سمعت صرخة (عديّ) مدوية واخترق الصفوف متجهًا نحو (ياسر) ليفتك به وينتقم لمقتل صديقه. ولكن قبل أن يصل إليه كان جسده قد تمزق من كثرة الضربات والطعنات التي تلقاها في الطريق ثم خر صريعًا بجوار صديق عمره ورفيق كفاحه...

الجميع حولي كانت أفـواههم مفتوحـة وقلـوبهم مضـطربة، ولكنـي لم أكن أبالي بهم. كنت أبحث عن قطتي.. هل رأت هذا المنظر الأليم؟

وجدتها واقفة فوق ركن بعيد من السور تحدق في المقتلة التي تحـدث في الخارج مذهولة متجمدة كدمية جميلـة رُكنـت عـلى رف وأهملـت منذ دهر من الزمن.

وقفت بجوارها أحدثها ولكنها لم تكن تسـمعني، عيناهـا مثبتتـان عـلى (رحمانوف) المسجى على الأرض غارقًا في دمائه.

سمعت صوت الصراخ يأتي من داخل سور الحصن، تركتها واتجهت إلى مصدر الصوت فوجدت أن طعنة الخيانة تأتينا من داخل الحصن أيضًا...

الآلاف من الوافدين إلى (مكة) لم يكونوا سوى مجموعات من ضعاف النفوس التي استسلمت لاغواء المسيخ واتبعوه، فكُلفوا بمهمة قذرة أن يأتوا إلى (مكة) ويطعنوننا في الظهر عندما يحين الوقت.

ربط الخونة على أذرعتهم شرائط حمراء تميزهم حتى لا يقتل أحـدهم رفيقه في المعمعة...

لم يكن أمامي بُد من القتال، ولكني لـو تركـت (زهـرة) وهـي في هـذه الحالة قد يباغتها أحد دون أن تشعر، أو ربما تُقبل على المعركة بتعجـل فتلقى حتفها.

لذلك جذبتها من يدها وقلت لها "اتبعيني"...

تبعتني في ذهول كفتاة صغيرة تتبع والدها حتى وصلنا إلى غرفتنا في القلعة، فقالت:

ـ "لماذا تأتِ بنا إلى هنا؟! يجب أن نقاتل."

جذبتها مجددًا من يدها وقلت لها:

ـ "فقط اتبعيني."

دخلنا غرفتنا وقالت:

ـ "ماذا الآن؟!"

قلت لها:

ـ "أنا آسف"

ثم خرجت من الغرفة بسرعة وأوصدت الباب من الخارج.

سمعت صوت صراخها في الداخل وطرقها على الباب وقلبي يتقطع وهو يسمع وعيدها، ولكني لن أجازف أبدًا بحياتها.

خرجت من القلعة فوجدت الجثث قد ملأت الساحة والجميع يحدقون إلى بعض في قلق واضطراب.

ظلت المعركة ثلاث ساعات.. انتصرنا بعدها ولكنه كان نصراَ بطعم الهزيمة. فقد انطلق (ياسر) إلى حضن (تحوت) آخذًا معه ما بقي من الجنود الخونة الذين ارتضوا قتل رفاقهم، وهرب بضع مئات ممن تمردوا داخل الحصن.

تأملت حال الجنود حولي قد استلقوا على الأرض من شدة التعب وانفتح بعضهم في البكاء مثل طفل فقد أمه.

رأيت المهدي يتجول بين الجنود يكلمهم ويستنهض همتهم، ولكنه كان يسير محني الظهر يكاد يسقط بين الجنود صارخًا باكيًا، ثم أمر الجنود بجمع الجثث في مكان واحد ودفن إخواننا وحرق الخونة قبل أن تتفشى الأمراض التي ليس لها دواء.

أصررت أن أدفن (رحمانوف) و(عديّ) بنفسي ثم وقفت على قبريهما. حدثت (رحمانوف) فقلت له:

ـ "أنت يا صديقي أعظم مجاهد رأيته في حياتي، وربما لم يُهيأ لك أمر الزواج من (زهرة الدين) ليبدلك بمن هي خير منها في الجنة".

ثم قلت ل(عديّ):

ـ "أنت تذكرني ب(سلمان الفارسي)- الباحث عن الحقيقة- الذي ترك ماله وأولاده وحريته بحثًا عن الحقيقة والجهاد في سبيل الحق.. أتمنى أن يكافأك الله فيقربك من أهل البيت في الجنة".

تذكرت (زهرة الدين).. أخشى أن تكون آذت نفسها، لابد أنها غاضبة مني بشدة.
وقفت أمام الباب وقبل أن أسحب الحديدة التي أوصدت بها الباب، نظرت إلى ملابسي فوجدتني غارقًا في دماء (عديّ) و(رحمانوف).
لا يمكن أن أدخل عليها بمثل هذا المنظر...
بدلت ملابسي واغتسلت ثم دفعت الباب ببطء. أخشى ثورتها ولكني وجدتها على سريرها جالسة القرفصاء غائصة برأسها بين ذراعيها وقد نزعت عنها ملابس الحرب ولم يبق سوى قميص أسود على جسدها الأبيض الغض.
وقفت قبالتها وأسندت ظهري على الحائط، فقلت لها:
ـ "لقد فعلت هذا لمصلحتك، فقد كنت شبه غائبة عن الوعي".
نظرت إلي بملامح جامدة ولم تتكلم.
فقلت لها:
ـ "لا أستطيع ان أتركك تموتين".
لم ترد، فقلت لها:
ـ "لماذا لا تبكين؟!! الرجال بالأسفل يبكون وأنت قد أصابك ألم مضاعف ولا تبكين.. ابك، اصرخي، سبيني، فجري غضبك نحوي.. ابك".
لم تجب وظلت ملامحها مجمدة...
أخشى أن تموت ضيقًا وكمدًا. ربما لو كانت قاتلت لتخلصت من بعض حزنها.
سكتت لبرهة ثم قلت:
ـ "ألا تبكين على (رحمانوف)؟"

نظرت نحوي بغضب، فأردفتُ:
ـ "لقد كان يحبك، وأنت بالطبع كان في نفسك شيئًا نحوه. أليس له حق عليك أن تبكيه وترثيه؟!"
ازداد غضبها واشتاط وجهها ولكنها لم تبك.
فقلت لها:
ـ "أنت عديمة القلب والاحساس"
فجأة قفزت من فوق سريرها وصفعتني ثم أخذت تضربني بكلتا يديها على صدري وهي تصرخ:
ـ "لماذا تركتني هنا ورحلت؟!! لماذا؟!"
وقفت مستكينا لضربها لعلها تفرغ ما بها من غضب وحزن...
فجأة توقفت عن ضربي وارتمت في حضني وتشبثت بي بقوة حتى شعرت بأظافرها تخترق لحم ظهري.. وضعت رأسها على كتفي وبدأت تنتحب كطفلة صغيرة.. شعرت بدمعها ينسكب على عنقي وعلا صوتها، وأحسست بجسدها يرتج كالمرجل يغلي...
مرت عدة دقائق ونحن واقفان في وسط الغرفة حتى جف دمعها وهدأت ضربات قلبها المضطربة.
رفعت رأسها عن كتفي عندما شعرت باضطراب قلبي وتهدج أنفاسي وحدقت فيّ بعينيها اللتان أنهكهما البكاء وشفتاها المرتعدتان.
لم أستطع مقاومة جمال عينيها أو الخضوع اللذيذ الذي رسمه الحزن على وجهها، فحملتها برفق ووضعتها على السرير.. عينانا متوافقتان متناغمتان.

اقتنصنا ساعة من الزمن ، أزحنا بها قدرًا من الهم الجاثم على صدرينا، ثم استلقيت بجوارها صامتًا أستعيد اللحظات الماضية وأكررها في رأسي حتى لا أنساها..

أما هي، فوضعت رأسها على ذراعي وأخذت تداعب بأناملها الرقيقة شعر صدري الكث حتى غلبها النعاس. تأملتها ولا تزال تنتابها شهقات فزعة في نومها، وشفتاها ترتعدان من حين لآخر، فعلمت أن مشهد استشهاد (رحمانوف) المروع يغزوها في نومها، فاحتضنتها بقوة حتى هدأت ثم قبلتها بحنو على جبهتها.

انسللت من جوارها ببطء ووقفت في الشرفة أراقب حال الجنود الذين يتحركون بترنح يجرون ورائهم ذيول الخيبة وانقطاع الرجاء. فمن بقي من الجنود لا يزيد عن بضعة مئات بعدما كنا بعشرات الألوف.. ولكن الخيانة كأفعى تنشغل بذيلها فيلدغك الرأس.

نزلت لأكون بين رفاقي من الجنود ولنعيد تنظيم صفوفنا.

وجدت مجموعة من الجنود واقفين يتحدثون فاقتربت منهم لأعرف فيم يفكرون، وجدت أحدهم يقول:

ـ "إنه ليس المهدي هذا الرجل الذي نتبعه رغم أنه على الحق.. كيف للمهدي أن يكون ساعده الأيمن خائنًا ولا يعرف؟! وكيف له أن يكون بهذا الضعف وهو من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! ولكني سأتبعه على أي حال رغم معرفتي أننا سنهلك جميعًا غدًا. ولكن ربما يُمكن الله لدينه بعد حين.. لقد سمعت أن الآلاف من المؤمنين ممن لم يتمكنوا من الوصول إلى (مكة) قد فروا بدينهم إلى الجبال، وأخبرني

صديق لي جاء من مصر أن جبل الطور يسكن حوله المئات من المسلمين وبعض الرهبان المسيحيين الذين فروا من الأندلس".

علت فجأة اصوات التكبير والتهليل فاتجهت إلى مصدر الصوت، فوجدت المهدي قد ارتدى زي الحرب وقرر قيادة الجيش بنفسه. فأعطى الأوامر بترميم ما تهدم من السور ونشر مئات الرماة على قمته وأمر الباقين بنصب المدافع والتسلح استعدادًا للدفاع عن (مكة) وعن الكعبة التي يريد (حاييم) أن يهدمها حجرًا حجرًا.

استمر الحصار للحصن مدة شهر كامل.. لا نعرف لماذا لم يبدأ (تحوت) بالهجوم؟!

البعض يدعي أن على أبواب الحصن ملائكة تحرسه فلا يجرؤ على الاقتراب، والبعض الآخر يقول إنه يبغي موتنا ببطء ويعذبنا بالانتظار قبل أن يعطي الأمر ببدء الهجوم...

إن كانت نبوءة الشيخ الذي كان محبوسًا معي في السجن الجهنمي صادقة، فإنه لم يبق من عمر (تحوت) سوى بضعة أيام ويهلك بعدها.. ولكن كيف يمكن لمثل هذا أن يحدث؟!

في اليوم التالي بدأ الهجوم...

عشرات الآلاف يحاصرون الحصن ويطلقون قذائف المدافع نحونا، فتهدم جزء من السور ومات بعض من اخوتنا، ثم أحدثوا أخيرًا فتحة كبيرة في السور لا يمكن إغلاقها، ثم حل الليل فتوقفت المعركة للراحة على أن تُستأنف في الصباح.

غدًا سأموت.. هذا أمر مؤكد الآن، الجميع يعرفه...

مرت هذه الليلة بمرارة الحنظل، كل واحد يودع أصدقائه وأحبابه. لم يصعد المهدي إلى غرفته ولكنه بقي طوال الليل مع جنوده يحكي لهم قصصًا عن البطولات التي قدمها من سبقهم من الصحابة والتابعين والقادة العظماء...

ثم قال:

ـ "لا أعرف إن كنت أنا المهدي أم لا، ولكني موقن أنني علي الحق.. والحق أحق أن يتبع.. غدًا ستبدأ المعركة الفاصلة، معركة الفرقان بين الحق والباطل كيوم بدر، لذا لن يضيعنا الله ولن يتركم الله أعمالكم.. فاقضوا ليلتكم في صلاة وتهجد وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله".

أشرقت الشمس وبدا ضوءها مخنوقًا متحشرجًا. الجنود يقفون خلف الثغرة التي في السور والتي سيأتي منها جيش المسيخ يتربصون وتضبح أنوفهم ببخار يغلي، ويتقدمهم المهدي الذي نزع درعه وتشبث بسيفه الضخم بكلتا يديه.. وقفته الصامدة والهواء يعبث بملابسه والإصرار في عينيه أشبه بحلم أراه في يقظتي، لم أر يومًا من هو بمثل شجاعته وقوة عزيمته...

سمعنا القائد على السور يقول "استعدوا.. أطلقوا"، وحاول الجنود فوق السور مستميتين منع العدو لكنهم سقطوا الواحد تلو الآخر. بدأ الطرق على السور والحجارة تنهار أمامنا.. كلما سقط حجر أطلت من خلفه عين ذئب يريد أن يفتك بنا حتى سقط تمامًا... فصرخ المهدي بأعلى صوته فانتفخت أوداجه واحمر وجهه وتطاير الرذاذ من فمه "حيّ على الجهاااااد.... الله أكبر "...

استمر الطعن والقتل منذ شروق الشمس حتى اقتراب الغروب.
لم يبق منا إلا بضع مئات يذودون عن آلاف من النساء والشيوخ والرضع ومن خلفهم الكعبة.. بيت الله الحرام قبلة المسلمين الذين يصمدون ما بقيت وان زالت زالوا.
عند الغروب سمع الجميع صوتًا جهوريًا وكأن بابًا بحجم جبل أحد ينفتح فوقنا.. فتوقفت الحرب واشرأبت الأعناق نحو السماء فتراجع الجميع في ذهول عندما رأوا هذا المنظر العجيب.. حتى أن بعضهم جثا على ركبتيه وسقطت السيوف من أيديهم لهذا المنظر المهيب. رغم أنني كنت أظن أني سئ الحظ لأدرك مثل هذه الفتنة، إلا أن هذا المشهد أنساني كل شقاء رأيته في حياتي وعلمت كم أنا رجل محظوظ لأشهد هذا المشهد الخرافي.......

** ** **

(٢٢)

بجوار جبل الطور في سيناء خرج الجميع من خيامهم ليراقبوا هذا المشهد البديع.. لقد كان نجمًا مضيئا متلألئا يغمر السماء بنوره وينزل على الأرض بلطف.

التفت (أحمد) إلى (عبد الله) الذي وقف يحدق في هذا الجسم الذي يتنزل على الأرض والابتسامة التي على وجهه ازدادت اتساعًا وبهاءا، قال له:

ـ "ماذا ترى في المقراب؟ هل هذا المسيخ الدجال؟"

قال (عبد الله):

ـ "حاشاه أن يكون كذلك، ولكنه نبي الله (عيسى).. نزل ليقتل المسيخ ويسكب الخمر ويقتل الخنزير ويصلي بصلاة المسلمين".

وقف (أحمد) مذهولًا لبرهة ثم انتزع المقراب من يد (عبد الله) ونظر فيه. جثا على ركبتيه من هول المنظر بينما لا يزال يحدق في السماء وقال ل(عبد الله):

ـ "إن كنت تعلم أن كل هذا سيحدث فلم جئت بنا إلى هنا ولم تأخذنا إلى مكة؟!"

قال (عبد الله):

ـ "لابد من وسيلة لتحقيق النبوءة بتواجد المؤمنين حول جبل الطور."

سأله (أحمد):

ـ "أي نبوءة؟!"

لم يجبه (عبد الله)، فكرر (أحمد) سؤاله:

ـ "عن أي نبوءة تتحدث؟!"

فلم يرتد له سوى الصمت. التفت إليه (أحمد) ليسأله ولكنه لم يجده. تلفت حوله كالمأفون باحثًا عنه ولكنه اختفي.. ناداه بأعلى صوته وبحث عنه بين الرهبان ولكنه تبدد كأن الأرض ابتلعته أو صعد إلى السماء... أيمكن ألا يكون بشريًا؟!! أيمكن أن يكون ملكًا هبط على الأرض ليساعدنا في مسعانا لمواجهة المسيخ الدجال ولتحقيق النبوءة؟

لا تفسير آخر أجده لمثل هذا الرجل الغريب الذي يعرف بعضًا من الغيب واختفي من بين مئات الرجال دون أن يلحظه أحد.

لم يفكر أحد حينها طويلًا.. الكل يراقب هذا النبي الذي لم أر في بهائه وهيبته أحداً، يستند على جناحي كائنين مضيئين بنور أبيض مبهر لا يستطيع أحد تحديد ملامحهما من شدة الضوء ووهجه.. لابد أنهم الملائكة.

** ** **

(٢٣)

استتر ضوء الشمس خلف نور (عيسى) عليه السلام الـذي مـلأ السـماء، نور براق كشموس الكون مجتمعة يهـبط عـلى دمشـق الشـام، فخـرج أهل الأرض من كل حدب وصوب يشاهدون هذا الحدث التاريخي...

أما (تحوت) فكان يحدق في السماء فاغرًا فمه تنعكس أضواء السماء اللامعة في عينه دون أن يجد تفسيراً منطقياً في عقله الكبير لمثل هذا التنزل المرعب...

التفت إلى (حاييم) فوجده يقفز فوق حصانه كقرد عجوز.

قال له (تحوت):

ـ "ما هذا الشيء الذي في السماء؟!"

التفت إليه (حاييم) دون أن تبدو على وجهه أي علامات دهشة أو قلق وقال له:

ـ "انه نبي الله (عيسى). نزل من السماء ليهزم الدجال ويحقق النبوءة".

ازدرد (تحوت) لعابه بصعوبة وقال:

ـ "أي دجال؟!! من الدجال؟!"

ضحك (حاييم) بشدة وقال:

ـ" بالطبع أنت الدجال"، ثم نظر إلى جنوده من الجن على هيئة البشر في جيش (تحوت) وأعطاهم اشارة الرحيل فانسل عدد كبير من الجنود وتحركوا بعيدًا نحو الصحراء.

ازدرد (تحوت) لعابه وقال:

- "هل تنسحب الآن من المعركة وأنا على وشك الانتصار؟! أتظن أنك قادر على التلاعب بي؟! أتظن أني سأتركك تنجو بفعلتك؟!"

ثم طار من فوق الأرض موجهًا قبضته إلى وجه (حاييم) فاخترقت يده وجه (حاييم) دون أن تصيبه وكأنه أصبح شفافًا مائعًا لا تصيبه الضربات...

وقف (تحوت) مذهولًا لا يصدق نفسه، ثم وجه لكمة أخرى إليه فلم تصبه، وعندما هم بلكمه الثالثة ضربه (حاييم) بعصاه فأطاحت ب(تحوت) بعيدًا وسقط على الأرض في دهشة من جنوده الذين داخلهم الشك والقلق...

نهض (تحوت) ونفض الرمال عن ملابسه وقال لحاييم:

- "من أنت؟! أنت لست رجلًا عاديًا، كيف تفاديت ضرباتي؟!"

ابتسم (حاييم) وقال:

- "أتظن حقا أنك تستطيع ايذائي؟!! أنا لم يكن لي عليك سلطان إلا أني دعوتك فاستجبت لي، فلا تلومني ولُم نفسك وواجه مصيرك وحدك.. أنا واجهت مصيري منذ آلاف السنين وكانت نتيجته اللعنة والإبعاد".

وقف (تحوت) مذهولًا مرتعدًا وقال:

- "من أنت أخبرني؟!! أنت الشيطان أليس كذلك؟! أنت ابليس؟!"

ضحك بشدة وقال:

- "لقد أدركت هذا متأخرًا، انظر حولك. لقد احتنكت بني آدم وأوصلتهم إلى طريق مسدود.. في نهاية هذه الفتنة ستسلك ملايين الأرواح منهم مسلكها إلى الجحيم عندما تلقى حتفها... اليوم أعلن انتصاري في معركتي ضد البشرية، جعلت ملايين البشر يكفرون بربهم

ويتبعون شخصًا أهوجًا معتوهًا يظن نفسه إلهًا، اليوم أتركك تواجه مصيرك وتقاتل حتى الرمق الأخير".
لكز فرسه فانطلق بسرعة ثم اختفي من أمام أعينهم.
وقف (ياسر) بجوار (تحوت) عيناه تدوران من الخوف وقال:
ـ "ماذا نفعل؟!"
قال (تحوت):
ـ "واصلوا الهجوم وبكل قوة."
لم يكد ينته من جملته حتى ارتجت الأرض ودوى صوت ارتطام قوي وكأن السماء أطبقت على الأرض.. لقد وصل المسيح (عيسى) عليه السلام أخيراَ إلى الأرض. خرج من بين شقوق الجبال وأوديتها من فر بدينه من المؤمنين، يراقبون عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، يتنزل على الأرض، فتهللت نفوسهم المنهكة وعاد الأمل إلى أرواحهم المهزومة.
حلقت النسور فوق قمم الجبال تراقب عوائل المؤمنين من رجال ونساء وشيوخ وأطفال يخرجون من شقوق الجبال ، يسيرون في الممرات الضيقة بعضهم خلف بعض، كمستعمرة من النمل تجتمع على قطعة من السكر. اجتمعوا حول (عيسى) عليه السلام ، الواقف عند المنارة الشرقية ، ودموع السعادة تنهمر من أعينهم.
قطع هذا المشهد المهيب.. زعيق المئات من جنود الحامية النورانية القريبة من المكان، ليقتلوا الصابئين عن عبادة الرب (تحوت).

فأشار (عيسى) عليه السلام إلى أتباعه ليتراجعوا، ووقف هو وحده لمواجهتهم.. بمجرد أن التقت أعينهم مع عينيه، خروا هالكين، وولت جيادهم مبتعدة.. ففي أنفاسه عليه السلام هلاك كل كافر.

لم يكن أمام (تحوت) بُد إلا أن يواجه هذا العائد من السماء، حتى يقطع الشك عن قلوب أتباعه، ويكسر الروح المستبسلة التي نمت بدواخلنا بعد رؤية تنزله.

ترك (ياسر) مع بضعة آلاف من الجند لحصارنا، وأمر جيشه بالتوجه نحو الشام ليقتل (الدجال الذي نزل من السماء) كما أسماه هو.

لم يكن من نبي الله إلا أن يتجول في دمشق وأجوارها، لتقتل أنفاسه الكفار، وتحيي الأمل في نفوس المؤمنين المختبئين في مصارف المياه مع الجرذان، حتى صار له جيش صغير، فعسكر به في (باب لد) بالقرب من دمشق ينتظر قدوم عدو الله.

وقف (تحوت) يتأمل حال جيشه المنهك من شدة السفر. الغضب يملؤه بعد ما حدث بينه وبين (حاييم).. يفكر في كلمات ابليس المسمومة، يشعر بأنه غرر به.. ثم اضطربت أنفاسه وملأه الغضب كبركان يتفجر، فاستدار ولكم الجبل الذي وراءه فنثره في الصحراء كما تنثر الريح الطلع. فتوجهت إليه أبصار الجنود مفزوعين يراقبونه وعيونهم زائغة، ثم أشار (تحوت) بكفيه نحوهم، فظنوا أنه يستنهضهم.. فوقفوا... ولكنهم تفاجؤوا بأن أرجلهم تطفوا فوق الأرض وكذلك خيولهم وسلاحهم وحتى الخيام تطير عن الأرض، حتى إذا

ارتفعوا بضعة أمتار طار (تحوت) حتى أصبح قبالهم، ثم حلق مبتعدًا ومن خلفه الجيش يطفو في الهواء لا حول له ولا قوة.
ارتج معسكر المسلمين في (بـاب لـد) ، وصرخ أحـد الرجـال "لقـد جـاء عدو الله... لقد جاء المسيح الأعور"
وقف (تحوت) يراقب وجوه أتباعه المشدوهة في زهو بعدما نقلهم آلاف الأميال في دقائق.. أي جبروت هذا؟ أي قوة تلك؟ من أشد منه قوة؟ من يقدر على هزيمته؟
نادى بأعلى صوته غاضبًا حتى صُمت آذان البعض، وجاب صوته الشـام وأجوارها.
ـ" فليخرج المـارق عـن عبـادتي، لأذيقـه مـن جحيمـي وويـلي، ليخـرج ويواجهني من فتن عبادي وقتل جندي".
بدأت صفوف المؤمنين تتباعد مفسحة الطريق لنبـي اللـه ليخـرج مـن بينهم بسيفه.
وقف (تحوت) يترقب وصوله، ويسبر أغوار الحشود غير صابر على قدومه، حتى جاءت اللحظة الحاسمة.. لحظة مرت عليه كألف عام.. عندما رأى أول ما رأى ذؤابة سيف نبي الله تلمع بوهج فضي عجيب.. شعر (تحوت) باضطراب قلبه واحترار جسده، لم يشعر بمثل هذا الشعور من قبل.. هل هذا هو الخوف؟ أم احساس آخر لم يزر نفسه من قبل.
الآن يرى اليد الممسكة بالسيف..
تصبب العرق من جبينه.. وتساءل في نفسه ماذا يحدث؟

مفاصله ترتعد وصدره يعلو ويهبط... أخيرا رآه.. تمنى في نفسه أن ليتـه مـا رآه... رأى أسـدًا هصـورًا.. نسـرًا فتاكًـا.. وحشًـا كـاسرًا.. رأى جيشًـا هادرًا... رأى الرعب عندما طالع عينيـه، سـمع الـذعر في وقـع أقدامـه وهو يقترب، لامس الخوف عندما لفحته أنفاس ابن مريم.

حاول أن يبادر بالهجوم ولكن زالت قواه، حـاول الهـرب ولكـن خـارت مفاصله.. جثا على الأرض.

جنوده يراقبون متعجبين مذهولين... ماذا حـدث لإلههـم الـذي نسـف الجبل ، وطيّر الحشود.

شحمه يذوب كلما اقترب نبي الله.

حاول الهرب ولكن السيف إليه أسرع، فهوى عليه بضربة واحدة فأهلكته... هذا الذي حير الدنيا وأشاع فيها الحروب والدمار.. يَنفق كما الكلب العقور، وتنتهي بانتهاء أنفاسه أشد فتنة وأقوى محنة أصابت الأرض.

في نفس اللحظة التي هلك فيها الدجال في الشام، تحقق قول الله عز وجل "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله" في (مكة)، فقد كان عدد الفرسان من المؤمنين في الحصن تسعمائة أو يقل، وكان جيش النورانيين بقيادة (ياسر) تسعة آلاف أو يزيد.

فخرجنا اليهم وقاتلنا واستبسلنا حتى تقدمنا وتراجعوا، تشجعنا وجبنوا، حتى إذا انفرط عقدهم أخذناهم أخذة واحدة، وقد جعل الله مقتل (ياسر) على يدي فانتقمت لصديقي.

بعـد بضـعة أيـام شـعرنا بوقـع أقـدام تـرج الأرض وكـأن جيشًـا يُقبـل نحونا...

ظهر في الأفق من بعيد فرس أبيض يكاد بياضه يضيء يبدو أنه ليس من الأرض، أكاد أزعم أنه رعى في الجنة وأكل من عشبها. يمتطيه فارس ما أجمله وما أبدعه...

كلما ارتطم حافر الفرس بالأرض قدح نارًا تضئ ولا تحرق وترتج الأرض.. لابد أنها تهتز خشوعًا وفرحًا بنبي الله أنه وطئها لعلها تزداد عند الله قيمة وفضلًا. فهلل المؤمنون وكبروا وألقى الرهبان صلبانهم وجرت الدموع من أعينهم أنهارا.

نزل عن فرسه وتوجه نحو المهدي فتحدثا طويلًا ولكني لم أتمكن من سماعهما، ثم دخل إلى الكعبة وطاف حولها وسط تكبيرات المؤمنين وتسبيحاتهم.

تمكن بعض أتباع المسيخ وجنوده من الهرب بعدما شهدوا مهلكه، فأعطى المهدي الأمر لجنوده بتتبعهم وإفنائهم جميعًا.. سمعت صيحات من بعض الرجال يقولون "الرحمة..الرحمة" شفقة بمن هربوا، ولكن المهدي قال:

ـ "لا.. وإنما قولوا القصاص.. القصاص لاخوانكم الذين قُتلوا بغير ذنب إلا أنهم يقولون ربنا الله، اليوم لا نذر على الأرض من الكافرين ديارًا، إنهم ان يظلوا فيها يُضلوا عباد الله المؤمنين ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا."

غصت الأرض بالدماء والجثث المبثوثة في الصحراء.

أذن المؤذن لصلاة المغرب وليس على الأرض سوى المؤمنين، كاليوم الذي نجا فيه نوح عليه السلام بالسفينة من الغرق...

اليوم اغتسلت الأرض من نجسها وتطهرت من الكفر...

اليوم يجتمع البشر تحت راية واحدة، قضية واحدة، إله واحد يعبدونه ويتوجهون اليه.

أقيمت الصلاة وأمّ الناس المهدي "صاحب الدار"، وصلينا وصلى خلفه (عيسى) عليه السلام "ضيف السماء". وبعد عدة أيام وصل (أحمد) الذي كان يطوي الأرض طياً لكي يقابل نبي الله.

بقي (عيسى) عليه السلام بضعة أيام، لازمه فيها (أحمد) كظله يسأله فيجيب عليه السلام في حلم وحكمة.

ثم قرر أن يخرج في رحلة إلى القدس ليقيم في الأرض التي فيها وُلد وشب.

خلدنا كلماته وطبعناها على مئات الصحف وأرسل المهدي كلماته للمؤمنين على الأرض ليسمعوا لها ويتبعوها.

ما أجملك يا نبي الله، وما أحلمك، وما أعذب كلماتك.. نبي الله وعبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

** ** **

هاكم قصتي.. ستمر الأيام والسنون وسيدعي الناس أني بالغت أو زدت لما رأيت.

سيقول البعض إنها أسطورة أو خرافة ولكني أعرف الفرق بينهما جيدًا، لذا لم أخبر سوى الحقيقة كما رأيتها ولا شيء غيرها.

وقريبًا سيظهر قوم يأجوج ومأجوج يعيثون في الأرض فسادًا، ثم تخرج الدابة من الأرض تخبر من عليها أن الناس كانوا بآيات الله لا يؤمنون، ثم يُغلق باب التوبة وتقوم الساعة. فاستعدوا لذلك اليوم وتزودوا له واعلموا أن خير الزاد التقوى فاحذروا أن تلهو وتعبثوا فتصيبكم مصائب وابتلاءات بقدر حيدكم عن الحق.

أما عن (حاييم) "ابليس" لعنه الله، لعله يزوي في جحره ينظر لبني آدم غيظًا وكمدًا أن فضلهم الله عليه وأعطاهم ما لم يعطه أو قومه.

أما أنا فسآخذ قطتي وأعود إلى مصر. سنقضي ما بقي لنا من أيام في سلام نتلو القرآن ونعلم الناس دينهم ونخبرهم عن (عيسى) عليه السلام والمهدي، وننجب العشرات من الأبناء والأحفاد ليعبدوا الله وليعمروا الأرض.

** ** **

صدر عن دار الفؤاد للنشر والتوزيع:

خفقات دامعة	رواية	رباب فؤاد
أماليا	رواية	ميرفت البلتاجي
شقلب أحوالك	رواية	وليد نبيه
رسم قلب	نبضات أدبية	كتاب جماعي
خيانة واي فاي	رواية	سلافه الشرقاوي
فابريكا	ديوان شعر	عبده نافع
اديني عقلك الله وامشي حافي	مقالات ساخرة	محمد أبو جاد
جرعة نيكوتين	مجموعة قصصية	محمد طارق
الخروج من مصر الجديدة	رواية	إسلام محمد عيسى